



رسائل جغرافية

المدينة العربية والإسلامية
توازن الموقع والتركيب الداخلي

أ.د. أحمد علي اسماعيل

شوال ١٤٠٧ هـ
يونيو ١٩٨٧ م

١٠٢

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت

للمؤسسات ١٢ دينارا كويتيا (سنويا)

للأفراد ٦ دينارا كويتيا (سنويا)

خارج الكويت

للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا (سنويا)

للأفراد ٧.٥ دينارا كويتيا (سنويا)

الجمعية الجغرافية الكويتية

ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت الخالدية الرمز البريدي 72451

رسائل جغرافية
نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

(١٠٢)

المدينة العربية والاسلامية
توازن الموقع والتركيب الداخلي

الدكتور أحمد علي اسماعيل

شوال ١٤٠٧ هـ - يونيو ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة العربية والإسلامية
توازن الموقع والتركيب الداخلي*

الدكتور أحمد علي اسماعيل
استاذ جغرافية المدن
بجامعتي القاهرة والكويت

مقدمة:

يمكن القول بأن «المدينة» هي الواجهة التي تعرض كل حضارة فيها أهم انجازاتها. وكانت المدن منذ أقدم العصور هي المحلات العمرانية التي تتوطن بها الحضارة وينطلق منها التقدم. وعلى ذلك فان كل حضارة من الحضارات التي شهدها تاريخ البشرية قد اتخذت لنفسها سجلا في المدن التي ارتبطت بتلك الحضارة. ولعل الحضارة الاسلامية - وهي واحدة من أكثر حضارات الدنيا رقيا واتصالا - تعطي نموذجا طيبا لأثر المدن في تنظيم الحياة، ولأثر الحضارة في تنظيم المدن أيضا.

ومن منظور تاريخي، فإن كثيرا من الكتابات عن الحضارات الغربية تنظر إلى فترة من التاريخ على أنها العصور الوسطى المظلمة بالنسبة للتاريخ

* بحث ألقي في مؤتمر الحفاظ على التراث الحضاري للمدن الاسلامية الذي عقد في اسطنبول في الفترة من ٢٢-٢٦ ابريل ١٩٨٥.

الأوروبي، وهي تشمل الفترة الممتدة بين سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في أوائل القرن الخامس للميلاد، إلى أن قامت النهضة الأوروبية في العصور الوسطى في أواخر القرن الحادي عشر، وفي بعض الكتابات فان ازدهار هذه النهضة لم يحدث إلا ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر[1]. فاذا نظرنا إلى عالم الاسلام فاننا نجد وجهة معاكسة لذلك تماما، فقد كانت عصور أوروبا المظلمة هي أزهى عصور العالم الاسلامي وأكثرها إشراقا، وعلى حين كانت امبراطوريات العالم القديم التي سبقت ظهور الاسلام وهي إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم قد أخذت في الاضمحلال، فإن ظهور الاسلام وانتشاره ما لبث أن قضى على الدولتين وانتشر إلى ما وراء كل منهما في فترة زمنية قياسية.

فقد حدثت الهجرة النبوية إلى يثرب «المدينة المنورة فيما بعد» في عام ٦٢٣ الميلادي، وبعد أقل من قرن واحد كان المسلمون قد انتشروا شرقا حتى وصلوا إلى بلاد ما وراء النهر، وفي عام ٧١١ الميلادي كان المسلمون قد وصلوا إلى ملتان في الهند، وفي الغرب وصلوا إلى أسبانيا وتم عبور مضيق جبل طارق، وبعد عام ٧١٢ الميلادي كانت الدولة الأموية قد امتدت في آسيا الوسطى لتصل إلى بخارى وسمرقند، وبذلك بلغت الدولة الاسلامية حدودا لم يصل إليها الأسكندر الأكبر في فتوحاته[2].

وعلى الرغم من أن المسلمين الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية لنشر الاسلام، قد خرجوا من بيئة صحراوية قاسية تندر فيها موارد المياه ويأخذ العمران فيها نمطا شديد التناثر والتشتت، وتنخفض فيه المحلات العمرانية التي يمكن أن ترقى إلى درجة المدن، إلا أن دور المسلمين في نشر حضارة المدن كان أمراً ملحوظاً، وذلك بالرغم من زعم بعض المفكرين الغربيين بأن العرب حين نشروا الاسلام لم ينشئوا مدنا، بل إن الإنكار وصل عند بعضهم إلى حد القول بأن المدينة بمعناها الكامل من وجهة النظر الاجتماعية لم تتحقق سوى في الغرب وأنها لم تظهر في العالم العربي إلا في أجزاء محدودة في سورية

ولبنان والعراق، وهم يبنون هذا الزعم على أن مقومات المدن هي حصون دفاعية وأسواق ودستور خاص بالمدينة واحساس سكان المدينة بالترابط والمشاركة إلى جانب ادارة حاكمة مستقلة للمدينة عن طريق الانتخاب من بين السكان(٣).

ولا تهدف هذه الدراسة إلى التغني بماضي المسلمين وحضارتهم ودورهم في إنشاء المدن الجديدة أو إحياء المدن القائمة، ولكنها تحاول أن تتعرف على أهم ملامح المدينة الاسلامية وخصائصها، والاضافات التي شهدتها، وفي رسم جزء من هذه الصورة مجال للمقارنة بين المدن الاسلامية في فترة ازدهارها وما نجد عليه كثيرا من المدن الاسلامية الحالية من فوضى وتدهور، لعل ذلك يسفر عن إحياء لبعض المعالم المشرفة التي عرفتها المدينة الاسلامية في ماضيها المشرق.

تعريفـــات:

لعل ثمة حاجة إلى بعض التعريفات لما سيستخدم في هذه الدراسة من مصطلحات، وذلك لتوضيح المقصود من كل منها:

المدينة العربية:

هي جزء من المدينة الاسلامية، لأن كل العالم العربي واقع ضمن اطار العالم الاسلامي، ولكن ثمة بعض أوجه التباين بين المدن العربية وبقية المدن الاسلامية لأن الحضارات السابقة على الاسلام تركت بصماتها على المدن وعلى ذلك فان الحاجة تقتضي الاشارة إلى أن ثمة انماطا مختلفة من المدن داخل إطار العالم الاسلامي، سواء بحدوده الحالية أو بحدوده في فترة الازدهار التاريخي، وفي بعض جوانب الدراسة قد نشير إلى حالة المدن العربية قبل الاسلام وبصفة

خاصة كلا من مكة والمدينة المنورة[٤]. كما أن المدن العربية المعاصرة تختلف في بعض خصائصها عن بقية المدن الاسلامية، وإن كان ثمة ملامح مشتركة بين هذه المدن جميعا، بل بين المدن الكبرى في العالم عامة.

المدينة الاسلامية:

وهي تضم كل المدن التي عاش فيها المسلمون أو شهدت ولو لفترة ما من تاريخها تأثيرا إسلاميا وكانت في بعض الأوقات جزءا من «دار الاسلام»، ومن تلك المدن ما يوجد الآن في الاتحاد السوفيتي أو في إسبانيا والبرتغال حيث كان المد الاسلامي قد انتشر، ولاتزال كثير من المدن التي انحسر عنها الحكم الاسلامي حاليا تشهد مؤسسات ومعالم معمارية وحضارية ترجع لعصر الحكم الاسلامي. ويرى بعض الباحثين أن ما نطلق عليه «المدينة الاسلامية» ليس في واقع الأمر سوى المدينة اليونانية أو الرومانية التي سبقتها وإذا كان قد حدث في تركيبها الداخلي بعض التغيير الذي يتناسب مع الاسلام فإن هذا لا يؤدي إلى اكتسابها صفة جديدة، وإن كل الذي حدث هو أن المساجد حلت محل المعابد أو الكنائس، كما يرون أن تعبير «المدينة الاسلامية» ليس تعبيرا محددا، ولكنه يضم كثيرا من النماذج المتباينة التي قد ترجع في جزء منها إلى الطابع المحلي وفي جزء آخر إلى الاختلاف في كل من المناخ والتربة والتراث الحضاري، بما يمكن معه أن يقسم العالم الاسلامي إلى وحدات متميزة، فقد شهد القسم الغربي تراثا لكل من اليونان والرومان، كما تأثر بموقعه الجغرافي بين الصحراء والبحر المتوسط، أما القسم الشرقي فانه يضم خليطا من تراث الحضارات الفارسية والهندية، بل إن كل وحدة من هذه الوحدات الكبيرة يمكن أن تقسم داخليا فمدن وادي النيل تختلف عن مدن شمال أفريقيا أو عن مدن الشام[٥].

الموقـــع:

ونقصد به هنا لأسباب المقارنة أن يشمل كلا من مفهوم الموقع الجغرافي الفعال Situation الذي تنظمه شبكة العلاقات المكانية للمدينة محل الدراسة، كما نقصد به أيضا الموضع Site الذي لا يمثل سوى اختزال يسير لبعض جوانب الجغرافية المحلية للمنطقة التي أقيمت عليها المدينة أو بنيت فوقها، وذلك لأن كلا الوجهين كانا متلازمين في عمليات اختيار الموقع للمدن التي بناها المسلمون، أو تلك التي طوروها ودعموها وعاشوا فيها، فعملية الاختيار كانت أمراً رشيداً للغاية، وعلى نحو خاص في المراحل الأولى للفتوح الاسلامية التي كان المسلمون فيها أقليات بين الشعوب المفتوحة حتى دخلت تلك الشعوب في الاسلام، وهنا اختلفت أسس اختيار الموقع وأصبح الموضع في كثير من الأحيان أكثر قيمة من شبكة العلاقات المكانية، ولكن ذلك بدوره لم يتحقق إلا عندما أصبحت «دار الاسلام» آمنة من الأخطار الداخلية والخارجية وأصبحت المدن سكنا لشعوب مسلمة كأغلبيات.

التركيب الداخلي:

ونقصد به استخدام الأراضي في المدينة بصورة عامة، وأهم معالم هذا الاستخدام، إلى جانب صور التنظيم المكاني للأنشطة التي تمارس في المدينة ويقوم جزء من هذا التركيب على أساس الأقاليم الوظيفية في المدينة أو استخدام الأراضي من واقع فعلي، إلى جانب التشريعات أو النظم التي تحدد صورة هذا الاستخدام، وهنا يكون لادارة المدينة أو لحكومتها قدر كبير من الأهمية ولعل مدى استجابة السكان لتطبيق القوانين المنظمة لاستخدام الأراضي في المدن يعطي صورة عن مدى الالتزام والاقتناع من ناحية ومدى عقلانية هذا التنظيم من ناحية ثانية، فكلما كان التنظيم منطقيا كلما كان التزام السكان به أكبر، والمدن متعددة الوظائف ولكن حاجات ومتطلبات كل وظيفة من حيث الموقع

الداخلي في المدينة متباينة من وظيفة لأخرى، وقد تتنافس بعض الوظائف على المنطقة المركزية أو الوسطى من المدينة في حين لا يكون وجودها مرغوبا فيه من حيث الراحة التي ينبغي توفيرها للسكان، وهنا يأتي دور التوازن الذي يمكن أن يتحقق بين معطيات الموقع والموضع من ناحية وكثافة السكان وحاجتهم من ناحية أخـرى. فاذا تحقق أكبر قدر من تلبية حاجات السكان دون اخلال بمعطيات الموقع كانت المدينة متوازنة في تركيبها الداخلي مع موقعها.

أولا: مواقع المدن الاسلامية:

تضم شبكة العمران درجات مختلفة من المحلات السكنية التي تتباين في أحجامها، فإلى جانب القرى توجد المدن الصغيرة أو البلدان وهي غالبا مقر اداري لأصغر الوحدات الادارية أو ما يمكن أن يطلق عليه القسم أو المركز (في مصر) وتأتي عواصم المحافظات لتمثل مرتبة أعلى من عواصم المراكز ومن بين هذه قد تبرز بعض المدن لتكون عواصم اقليمية تتعدى أهميتها مجرد كونها قاعـدة إدارية للمحـافـظة فتكون مصدر اشعاع في شبكة العلاقات لوحدة جغرافية أكبر ثم تأتي العواصم السياسية والمدن الكبرى التي تكون بعضها أمهات المدن، وهذا الترتيب المدني أو ما يطلق عليه الهيراركية الحضرية Urban Hierarchy قد ورد كثيرا في كتابات الجغرافيين المسلمين في دراستهم للمدن، مما يدل على أن ثمة تصنيفا للمدن يقوم في جزء منه على أساس الموقع وفي جزء آخر على أساس الوظيفةإلى جانب الحجم أو عدد السكان، وأهم المراتب التي صنف المسلمون مدنهم إليها هي كما يلي مرتبة تنازليا من الأكبر إلى الأصغر.

(١) أمهات المدن أو الحواضر الكبرى (وهي تقابل Metropolis).

وهي تضم العواصم التي لعبت دورا في تاريخ الدولة الاسلامية، أو اتخـذت قاعدة للخلافة أو للحكومة فيما بعد، وقد عبر عنها كل من المقدسي وياقوت الحموي بأنها «الأمصار» ويرى الأول في هذا الصدد أن

«الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة، وقد اختلف في الأمصار فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ـ أو بنفسه ـ. والمصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلدت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الأقليم مثل دمشق والقيروان»[٦] كما يضيف ياقوت أن للمصر توابعها من ضواحي تقع خارج أسوارها ومن أمثلتها القاهرة ومعها الفسطاط وكان يجمعها سور واحد وفي خارجه توجد ظواهر المدينة أو ضواحيها. وأهمها الروضة والعسكر[٧]. ومن هذه المدن كل من القاهرة وبغداد ودمشق والقيروان واستنبول وقرطبة.

(٢) المدن الأقليمية، أو القصبات (وهي تقابل City أو Major city) وهي أقل مرتبة من المدن الأمهات، إلا أن لها شبكة علاقات اقليمية وهي أقرب ما يكون إلى المدن ذات النفوذ الاقتصادي والسياسي في أقاليمها، ومنها مثلا من المدن الحالية حلب في سورية والبصرة في العراق وطنطا وأسيوط في مصر، فدور هذه المدن يتعدى حدود أقاليمها الادارية إلى مجال أوسع، وبخاصة في مجال نشر خدماتها.

(٣) المدن أو المدائن، وهي أقل مرتبة من القصبة وهي العواصم الادارية للمحافظات وبذلك فانها مدينة صغيرة Large town أو Small city).

(٤) . النواحي وهي البلدة الصغيرة (Small town) وهي أعلى مرتبة من القرى التي تمثل أدنى درجات العمران.

ولعله مما يستلفت النظر أن ثمة مواصفات معينة وضعها المسلمون لمواقع المدن، وقد جاءت تلك المواصفات والخصائص في مؤلفات مختلفة، وإذا كان أشهر الذين أثبتوا تلك الشروط هو «ابن خلدون» فقد سبقه في ذلك «بأكثر من خمسة قرون ومؤلف آخر هو «ابن أبي الربيع».

ومن أهم خصائص الموقع التي عنى بها المسلمون ما يرتبط بالعوامل العسكرية وما يرتبط بضرورة توفير مياه الشرب، وأن تكون المدن في وسط ظهير غني يمكن أن يوفر حاجة السكان من الغذاء دون عقبات تحول دون نقله في سهولة ويسر. وفي ذلك يرى «ابن أبي الربيع» أنه ينبغي أن يراعي عند انشاء المدينة شروط متعددة يتصل منها بالموقع أمران أساسيان هما:

* أن يسهل وصول الماء العذب اليها ليشرب سكانها منه في سهولة ودون عسف.
* أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة(٨).

ثم يأتي «الماوردي» بعد ذلك بقرنين تقريبا فيضيف عناصر جديدة ينبغي أن تتوفر عند انشاء المدن، حيث يرى أن كل ما يشترط لقيام المدينة مرتبط بعناصر الموقع وتحقيق أمن السكان سواء من أعدائهم أو من أخطار الحصار وبعد موارد الغذاء، هذا إلى جانب الظروف المناخية والأحوال الصحية فهو يشترط ستة عناصر وهي:

(١) سعة المياه المستعذبة وهو يعني بذلك ضرورة وفرة مياه الشرب.

(٢) إمكان الميرة المستمدة. ويقصد بها ضمان حصول المدينة على حاجتها من الموارد الغذائية بلا عقبات.

(٣) اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة وهو هنا يشترط ألا يكون الموقع متأثراً بأي عنصر يسبب تلوث الهواء أو التربة وهو اتجاه لم تشهده الدراسات الحضرية في الغرب إلا في هذا القرن العشرين أي بعد أكثر من عشرة قرون مما جاء في كتاب الماوردي (المتوفي في عام ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م).

(٤) قربه مما تدعو اليه الحاجة من المراعي والأحطاب وذلك لتوفير مراعي الماشية التي تشكل مصدرا رئيسيا للثروة من ناحية ومصدرا للغذاء من

ناحية أخرى، أما الأحطاب فهي مصدر الوقود الأساسي - بل الوحيد تقريبا - في تلك الفترة.

(٥) أن يحيط به سواد يعين أهله بموارده.

ثم يرى الماوردي أنه إذا تكاملت هذه الشروط الستة في إنشاء المدينة أو المصر فقد «استحكمت قواعد تأبيده ولم يزل إلا بقضاء محتوم وأجل معلوم»[٩].

والواقع أن ما جاء به «الماوردي» يعتبر سبقا لما جاء به بعد ذلك «فون تونن» في نظريته عن «الدولة المنعزلة»، والذي يرى فيها كيف تؤثر المدينة في أنماط استخدام الأراضي في الريف من حولها، ولم يظهر مؤلف «فون تونن» إلا في عام ١٨٢٦ بعد أربعين عاما من الملاحظات والتجارب[١٠].

بل إن «الماوردي» يفصل بعد ذلك في حقوق سكان المدينة على الحاكم أو الذي ينشىء المدينة حيث يرى أن عليه أن يكفل للسكان فيما يختص بالموقع الحقوق الآتية:

(١) أن يسوق إليه ماء السارية ان بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية أو حياض سائلة ليسهل الوقوف اليه من غير تعسف.

(٢) أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدوا، أو خافوا اغتيالا، حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه. ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه وحرز لمستوطنيه[١١].

ولعل المواصفات والشروط التي وضعها «ابن خلدون» بعد ابن أبي الربيع بثلاثة قرون ونصف تمثل إيجازا بليغا لاشتراطات المسلمين في مواقع المدن حيث يرى ابن خلدون أن مخطط المدينة ينبغي أن يأخذ في اعتباره ما يلي:

(١) أن تحتل موضعا متمنعا من الأمكنة، على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر، حتى يصعب الوصول اليها إلا بعد عبور جسر أو قنطرة.

(٢) مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض.
(٣) جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائه عيون عذبة.
(٤) طلب المراعي للسائمة فاذا كانت قريبة كان ذلك أرفق لهم وتجنبا للمشقة.
(٥) أن تحاط المدينة بسور يدفع عنها المضـار[١٢].

فإذا كان ثمة من ربط لتلك المواصفات التي أوردها ابن خلدون بما درجت عليه المؤلفات الحديثة، فان أهم شيء هو أن تكون المدن في مواقع حاكمة من الناحية الطبغرافية، بحيث تصعب مهاجمتها ويسهل الدفاع عنها وأن يكون لها من الدفاعات الطبيعية ما يمكنها من صد أي هجوم عليها، وتضاف لذلك التحصينات الصناعية وهي الأسوار، أما من حيث تأمين مصادر الحياة الأساسية فهي مياه الشرب وموارد الغذاء، هذا إلى جانب اختيار المواقع المتميزة من الناحية المناخية بحيث يكون هواؤها نقيا غير ملوث، وبعض هذه الأمور لم يقدرها العالم الغربي إلا في القرن الحالي حين ازدادت أخطار التلوث الناتج عن الصناعة وأجريت قياسات على تلوث الهواء وبدأ العمل على تطبيق تشريعات تحمي سكان المدن من أخطاره. بل أن الأمر تعدى ذلك إلى تقرير اقتصاديات النقل واستخدام الأراضي حين اشترط ألا تكون المراعي بعيدة وأن تكون المزارع واسعة.

ولعـل توفـير مياه الشرب للمـدن يمثل أحد الأوجه المشرقة للمدينة الاسلامية، فقد ظهر الاسلام في بيئة تندر فيها موارد المياه، وراعى المسلمون دائما الحفاظ على موارد المياه، بل إن بعض غزوات الرسول مثل بدر ترتبط في اختيار موقع جيش المسلمين بتأمين مصدر مياه الشرب للمحاربين وخيولهم وابلهم، ولعل أثر المياه في اختيار مواقع المدن في الاسلام وطرق الحصول على المياه لمدن المسلمين تحتاج إلى بعض التفصيل كعنصر حاسم من عناصر الموقع. وإذا كان توفير المياه من الأنهار للمدن ذات المواضع النهرية أمرا منطقيا فإن

الأمر لم يكن سهلا للمدن الصحراوية، ولذلك عنى المسلمون بتوصيل المياه إلى مثل تلك المدن عن طريقين:

أ ـ بواسطة القنوات السفلية:

أي التي توجد تحت سطح الأرض، وهي أقدم صورة لشبكة امداد المدن بالمياه وتقرب كثيرا من شبكات أنابيب الشرب في المدن المعاصرة.
وثمة كثير من المسميات لتلك الشبكة من القنوات، فهي القناة أو الفجارة أو الدبول، أو الخطارة، أو الكاظمة أو الكهاريز، وهي تنتشر من باكستان وإيران شرقا حتى الأندلس غربا. ولاتزال مكة المكرمة تحصل حتى الآن على جزء من مائها من بعض هذه القنوات أو الدبول في وادي فاطمة، وتسير تلك القنوات مستغلة تجميع المياه وانحدار السطح وقد تمتد لعدة كيلومترات تحت السطح على شكل قنوات مبطنة بالأحجار لتفيد منها المدن والمزارع(١٣).

أما في المغرب والأندلس، فإن القنوات تحت السطحية، كانت تقنية مطبقة ولاتزال حتى اليوم في كثير من المدن الاسبانية، ومن أمثلتها ما يوجد في غرناطة حيث تمتد هذه القنوات التي تستخدم في الزينة والري في حدائق «جنة العرِّيف». بل ان مدينة مدريد الحالية عرفها العرب باسم مجريط، وقد بنيت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط، فوق مستودعات من المياه الجوفية ولعل اسمها مشتق من تصغير كلمة المجرى نسبة إلى مجموعة المجاري والقنوات الجوفية التي لاتزال آثارها باقية إلى اليوم، وفي منتصف القرن الرابع الهجري أجري الماء العذب في قناة تحت الأرض بنيت من الحجر الذي تمت تكسيته بالرصاص ليحفظه من أي تلوث، وذلك لتزويد المسجد الجامع في قرطبة بالمياه.

وفي مدينة مراكش المغربية حفرت قناة كبيرة في مطلع القرن السادس الهجري

(١٢م) بعد أن حفر المهندس «عبدالله بن يونس» في منسوب مرتفع من المدينة بئرا كبيرة ثم أوصل من قاعها المياه عبر قنوات تسير تحت الأرض وفق انحدار محسوب، وتم توصيل المياه إلى مختلف أحياء المدينة، التي لم تلبث نتيجة لذلك أن اتسع عمرانها، ولاتزال هذه الشبكة من القنوات الجوفية باقية في مدينة مراكش حتى اليوم، وقد حدث نفس الشيء في عدد آخر من المدن المغربية منها الرباط ومكناس التي تنقل اليها المياه في سراديب تحت الأرض على بعد يصل إلى عشرين كيلومترا[١٤].

ب ـ بواسطة القنوات المرفوعة:

ويبدو أن المسلمين قد أخذوا هذا الأسلوب عن الرومان ولكنهم حافظوا عليه وصنعوا على منواله، ومن أمثلة تلك القنوات المرفوعة ما وجده المسلمون في الأندلس في مدينة شقوبية Segovia وهي تمتد بطول ٧٢٨ مترا ويرتفع منسوبها أحيانا إلى ٢٩ مترا فوق منسوب سطح المدينة ولكنه في نهايته يقترب من مستوى الشارع بحيث لا يتعدى مترا ونصف المتر، وترجع هذه القناة إلى القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي في عهد تراجان، وقد حافظ المسلمون عليها طوال حكم الأندلس، بل أنها ظلت مصدر امداد مدينة شقوبية بالمياه حتى عام ١٨٨٤، وحين مدت أنابيب حديثة للمياه في عام ١٩٢٨ فقد شغل جزء منها مجرى القناة القديمة. كما طبق نفس الأسلوب في مدينة القاهرة في «مجرى العيون» الذي كان ينقل المياه من نهر النيل بواسطة مجموعة من السواقي الرافعة ومن ثمة كان يتجه إلى القلعة لامدادها بالمياه، ولا تزال بقاياه قائمة حتى الآن في مصر القديمة أحد أحياء القاهرة.

مواقع مدن الاسلام الأولى:

يتضح من دراسة أوائل المدن الاسلامية من حيث الموقع، أن ثمة أبعاد

حرص المسلمون عليها في هذه المدن، ونقصد بمدن الاسلام الأولى تلك المدن التي عاش فيها المسلمون خلال القرن الأول للهجرة، وهذه المدن يمكن أن تقسم إلى فئات ثلاث: الفئة الأولى وهي المدن التي كانت قائمة قبل ظهور الاسلام ثم شهدت تغيرا واضحا في الأهمية مع ظهور الاسلام، وأهم هذه المدن هي المدن التي شهدت مهد الاسلام، ومولده في شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه المدن ولا تزال ذات أهمية خاصة في حياة الاسلام والمسلمين، ونعني بذلك كلا من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

أما الفئة الثانية فهي المدن التي شهدت انطلاقة الاسلام الأولى في عهد الخلفاء الراشدين وبداية الدولة الأموية، وقد ارتبطت هذه المدن ببداية الفتوح الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، وتمتاز هذه الفئة بأنها مدن لم تكن قائمة إنما أنشأها المسلمون ولذلك فهي مدن اسلامية منذ بداياتها الأولى، وكانت في غالب الأحيان مدنا مخططة، وهذه المدن تقع كلها داخل الاطار العربي حاليا ويمكن بذلك أن نطلق عليها المدن العربية الاسلامية وهذه المدن هي البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان.

والفئة الثالثة تشمل المدن الاسلامية بعد اتساع الدولة العربية الاسلامية، وازدياد رقعة العالم الاسلامي امتدادا من الهند، وربما ماليزيا شرقا مرورا ببلاد ما وراء النهر، كما تمتد في الغرب إلى الأندلس، وتمتد هذه المدن شمالا إلى أجزاء تقع حاليا في الاتحاد السوفييتي، أما في الجنوب فيمكن أن تمتد إلى شرق القارة الأفريقية في تنزانيا الحالية، وهذه الفئة من المدن هي التي تعرضت لأن تصبح أحيانا مدنا اسلامية تقع داخل أقطار غير اسلامية، ومع ذلك فلاتزال تحتفظ بطابعها الاسلامي ويمثل بعضها صورا مشرقة لتراث الاسلام الحضاري والمعماري، وهذه الفئة يمكن أن نطلق عليها مدن الدائرة الخارجية للاسلام.

(ا) موقع مكة والمدينة المنورة:

أ ـ مكـة المكـرمـة:

ثمـة بعض أوجه الخلاف في موقع كل من مكة والمدينة المنورة، ومن الناحية الجغرافية تكاد مكة أن تتوسط المسافة بين الشام واليمن، وهي توجد عند منتصف المسافة بين رأس خليج العقبة وباب المندب أو أنها تنصف ساحل البحر الأحمر وان لم تقع عليه، وهي مدينة تقع على تلال ومرتفعات إذا ما قورنت بما يقع إلى الشمال منها، ولكنها تعتبر في مقدمة المرتفعات التي تمتد جنوبا في الحجاز إلى أن تصل إلى أقصى ارتفاعها في اليمن، وموقعها على هذا النحو يجعلها من مدن الانتقال الطبغرافي على أساس أنها تقع في نهاية مرتفعات الحجاز شمالا ثم يبدأ إلى الشمال منها ظهور منطقة أكثر استواء في سطحها، وعلى حين يوجد الحرم المكي على منسوب ٢٩٢ مترا فوق مستوى سطح البحر، فانه يحيط به مناسيب أعلى يصل ارتفاعها إلى ما بين ٣٤٠ إلى ٤٧٠ مترا فوق مستوى سطح البحر، وبصفة عامة فان المرتفعات الواقعة في شمال الحرم وشرقه وهي جبل الحجون وجبل أبي قبيس وجبل كداء تكون أكثر ارتفاعا مما يقع في جنـوب الحرم وغربه وعادة ما تقسم مكة إلى قسمين هما المعلاة والمسفلة، وتعكس التسمية منسوب كل منهما بالنسبة للآخر، وتضم المعلاة ما يلي الصفا وجبل أبي قبيس مصعدا إلى أعلى مكة، وأما المسفلة فهي تمتد من جانب الصفا إلى أجياد وما دون ذلك. ومساكن مكة وعمرانها موزعة بين التلال والسفوح في مختلف الشعاب أو الأودية التي كانت ـ ولا تزال ـ تمثل مصدر خطر عند هطول أمطار غزيرة تتجمع منحدرة نحو الحرم وان لم تكن هذه السيول أو الأمطار أمرا منتظما[١٥].

ومكة تقع في منطقة يسودها الجفاف، فهي تقع «بواد غير ذي زرع» نظرا لندرة المياه فيها، ولذلك كان وجود الماء في بئر زمزم أمرا يمثل الحياة وسط

هذا الجدب والجفاف، ويرى بعض الذين ناقشوا اختيار ابراهيم عليه السلام لموقع مكة انه لم يكن عفوا ـ هذا إذا كان الاختيار بشريا ـ فقد كان رحالة وخبيرا متمرسا يدرك أهمية هذا الموقع نتيجة لأسفاره الكثيرة، على أن الموقع تعرض لشيء من التدهور في أهميته نتيجة الصراعات بين القبائل والذي كان من نتيجته أن طُمرت زمزم، حتى ظهر زعيم قوي قبل الاسلام بقرن ونصف هو قصي بن كلاب الذي بدأت مكة تزدهر نسبيا في عهده لأنه أدرك قيمة الموقع من ناحية ونظَّم أحوال السكان السياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى، فعادت لمكة مكانتها الدينية والأدبية في شبه الجزيرة، وكان من أهم ما قام به قصي ومن جاء بعده حفر الآبار في وادي مكة لتوفير مياه الشرب للعرب الذين يقصدون المكان للحج، وإذا كان من الصعب القول بأن مكة قد انحدرت أهميتها إلى حد البداوة قبل قصي، وبأنها قد شهدت حياة الاستقرار قبله بأجيال طويلة، فان أهم انجاز يمكن أن ينسب إليه في مجال التنظيم الاجتماعي والعمراني فيما يرتبط بالموقع هو أنه جعل «السِّقاية» أي توفير المياه للمدينة وخاصة في مواسم الحج، جعلها وظيفة واضحة تناط بأحد أولاده ليكون مسئولا عنها، ثم دعمت هذه الوظيفة تماما في عهد عبدالمطلب الذي آلت اليه هذه الوظيفة ففكر في اعادة حفر زمزم، وظل يبحث عن موضعها حتى اهتدى إليه(١٦).

وقبل أن يعيد عبدالمطلب حفر بئر زمزم، كانت مواسم الجفاف تستمر أحيانا لسنوات ثلاث أو أكثر، ولا يسقط المطر إلا بكميات قليلة تشكل سيولا سرعان ما تختفي، وبينما يرى البعض أن زمزم قد انطمرت نتيجة لما تجلبه السيول من رواسب، فان آخرين يرون أن الحروب القبلية أدت إلى أن احدى القبائل التي هزمت وكان عليها أن تترك مكة، قد عمدت إلى ردم البئر، ثم ساعدت الطبيعة على ذلك حين تكاثرت الرمال على موضعها حتى اندثرت، وأصبح لزاما على كل بطن من بطون قبائل مكة أن تحتفر لنفسها بئرا، وكانت

هذه الآبار تقع خارج مكة، مما كان يسبب كثيرا من المشقة في جلب الماء وبخاصة في مواسم الحج، ثم حدث في أحد الأعوام ان انقطعت الأمطار وكادت مياه الآبار أن تجف نتيجة لذلك، وكان هذا هو السبب الذي حدا بعبدالمطلب إلى التفكير في إعادة حفر زمزم.

ومع ذلك فان مكة في عهد عبدالمطلب لم تكن تستطيع أن تنافس مدن شبه الجزيرة العربية في خيراتها أو بذخها، فقد كانت تقع في أجدب بلاد العرب ولم تكن تختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية في شكلها الخارجي أو منظرها العام، ولكن أهم ما كان يميزها ويرفع من قدرها كان شيئا لا يرتبط بموقع المدينة ولكنه يرتبط بوجود الكعبة بها[١٧].

ب - المدينة المنورة:

أما موقع المدينة المنورة، أو يثرب كما كانت تسمى قبل الهجرة، فهو مختلف كثيرا عن موقع مكة، فهي تقع في منطقة ذات منسوب منخفض بالنسبة لما حولها، فإلى الغرب منها توجد مرتفعات غير متصلة تشكل جزءا من جبال الحجاز وامتدادها الشمالي في جبال مدين وإلى الشمال الشرقي منها توجد كتلة جبل شمر والجبل الأبيض، والمدينة تحيط بها مباشرة حرات بركانية هي حرة واقم في الشرق وحرة الوبرة في الغرب، وإلى الجنوب الغربي منها يقع جبل عير وإلى الشمال منها يوجد جبل أحد وجبل سلع، ومن هذه المرتفعات تنحدر كثير من الأودية التي تحيط بالمدينة المنورة من مختلف الاتجاهات. وأهم هذه الوديان واديان وهما: وادي بطحان ووادي رانوناء اللذان يلتقيان معا ثم يتجهان إلى الشمال الغربي فيتصلان بوادي قناة في شمال المدينة وإلى الجنوب من جبل أحد وعندما تتجمع هذه الوديان تعرف المنطقة بمجتمع الأسيال.

وعلى العكس من مكة فان يثرب كانت قبل الاسلام واحة خصبة، تتوفر لها موارد مائية وتربة بركانية خصبة أدت إلى وجود حياة زراعية مستقرة، وهي

مدينة قديمة اشتهرت بغناها وكانت محطة للمعينين ثم للسبئيين من بعدهم في تجارتهم مع الشام[١٨].

وكانت آبار يثرب سببا في غنى المنطقة زراعيا، حيث كانت توجد بها أراض محروثة وبيوت مستقرة وحدائق ونخيل، وكانت مثل المدن الواقعة في شمال غرب بلاد العرب من حيث تحضر سكانها، غير أن الذي يعنينا هنا من وجهة نظر الموقع أنها لم تكن محطة تنافس مكة في طريق القوافل بين الشام واليمن. ولعل ذلك راجع إلى انها كانت تنتج ما يكفي حاجة سكانها من مواد الغـذاء، إلا أن هذا الغنى كان من الممكن أن يمثل مصدر خطر عليها وبخاصة لأنها تقع في بقعة تحيط بها المرتفعات، ومرة أخرى يتضح الفارق بين موقع كل من مكة ويثرب في أن الأولى برغم علاقاتها التجارية القوية فانها لم تكن مدينة مسورة، أما يثرب فقد كانت مدينة مسورة ومحصنة في آن معا، وبينما كانت مكة مدينة آمنة بحكم العرف الذي ساد بين العرب قبل الاسلام، حيث أن عبدالمطلب لم يدافع عنها ضد جيش أبرهة لأنه لم يكن يملك جيشا ولم يكن بها تحصينات، أما المدينة فلم تكن مسورة فحسب، ولكن كان لسكانها قبل الاسلام، وكانوا أساسا من اليهود من قبائل بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير وغيرهم إلى جانب جماعتي الأوس والخزرج الذين أتوا مهاجرين من اليمن كان لأولئك السكان، وبخاصة اليهود الذين سكنوا حرة واقم، حصون يعيشون فيها وهي التي تعرف باسم «الآطام» وكان أصحابها يهرعون إليها في أوقات الخطر أو الحرب كما يأوى اليها النساء والأطفال والمسنون عندما يخرج الرجال للقتال، وإلى جانب ذلك فقد كانت بها مخازن تجمع فيها المواد الغذائية إلى جانب السلاح والمال، وكان في كل أطم منها بئر أو أكثر تحسبا لأي حصار قد يطول فلا يكون ثمة تهديد بالجوع أو العطش لمن يحتمون بتلك الآطام، وكان في يثرب ٥٩ من هذه الآطام يتحصن بها اليهود كما لم يكن للأوس والخزرج من سبيل للدفاع عن أنفسهم الا باتخاذ آطام مماثلة يحتمون بها، ويقدر

أنه كان لبطن واحدة من بطون العرب تسعة عشر من تلك الآطام، وهي كلمة تعني بالعبرية جدرانا لا نوافذ لها من الخارج وبالعربية الأبنية المرتفعة(١٩).

ولعل عنصر الدفاع الذي كان ضروريا هو الذي أدى بعد الهجرة إلى محاولات غزوها بواسطة قريش من ناحية، وتسيير السرايا في عهد النبي للدفاع عنها عندما لم يكن الاسلام قد أنشأ لنفسه سوى «دويلة المدينة» وقبل فتح مكة الذي حدث في عام ٨ للهجرة. وكانت الأخطار التي تتهدد هذه الدويلة متمثلة في خطر داخلي هو اليهود الذين لم يكونوا راغبين أبدا في أن يكتب للدين الجديد أن ينتشر أو ينتصر، وخطر خارجي يتمثل في قريش وغيرها من أحلافها الـذين كان يزعجهم كثيرا أن ينتصر عليهم محمد ولعل أهم الحروب التي خاضتها الجماعة المسلمة في المدينة قبل فتح مكة هي موقعة بــدر (في العام الثاني للهجرة) وقد انتصر فيها المسلمون ونتيجة لتآمر بني قينقاع واتصالهم بالعدو فقد تم اجلاؤهم عن المدينة المنورة، ثم في العام التالي (٣هـ) حدثت موقعة أحد على مشارف المدينة وترتب عليها إجلاء مصدر آخر للخطر الداخلي وهم قبائل بني النضير، ثم موقعة الأحزاب أو الخندق (في عام ٥هـ) وقد أسفرت عن الخلاص من بني قريظة لخيانتهم ونقضهم العهد مع النبي.

والذي يهمنا في مناقشة موقع المدينة المنورة هنا هو أثر الموقع في إقامة الحصون والأسوار للدفاع عنها، ثم العبقرية التي تجلت في حفر الخندق للدفاع ضد الأحزاب، وقد تم حفر الخندق في فترة قياسية في الجزء الشمالي من المدينة، وكان الذي أشار بفكرته «سلمان الفارسي»، وقد كان عريضا بحيث يحول دون عبور الخيول والفرسان له، ولم يكن وسيلة مألوفة قبل ذلك في بلاد العرب مما أحدث كثيرا من الفوضى والارتباك في صفوف الأحزاب فانسحبوا وتحقق النصر للمسلمين(٢٠). فقد أملى الموقع على يثرب قبل الاسلام ثم على المدينة بعد الهجرة أن تكون مدينة محصنة، وعندما أصبحت عاصمة للدولة الاسلامية في

عهد النبي بعد فتح مكة كان عالم الاسلام قد بدأ في الاتساع وأصبحت المدينة المنورة مدينة آمنة هي الأخرى بفضل الاسلام، ولم يعد ثمةحاجة ماسة للصبغة الدفاعية التي لازمتها عصرا طويلا من عمرها حتى فتح مكة.

(٢) مواقع مدن الإسلام العربية:

كانت المدن الأولى التي أنشأها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية هي تلك التي بدأت مع حركة الفتوح الاسلامية في الشرق والغرب، وهي المدن التي شهدت أول انطلاق للاسلام خارج مهده في منزل الوحي، تقع هذه المدن الآن داخل الاطار العربي من عالم الاسلام. ولما كان المسلمون الأوائل الذين خرجوا من شبه الجزيرة فاتحين للأقطار المجاورة وناشرين للاسلام هم في حقيقة أمرهم من البدو الذين ألفوا حياة البر ولم يألفوا الحياة بجوار الأنهار أو البحار، ولم تكن وسائل انتقالهم في أوقات السلم أو الحرب تتعدى الابل أو الخيول فقد حدد ذلك مواقع المدن الأولى التي كان من الوصايا التقليدية في انشائها إلا يفصل بينها وبين شبه الجزيرة فاصل مائي سواء كان نهرا أو بحرا. وينطبق ذلك بصورة خاصة على كل من البصرة والكوفة والفسطاط.

أ ـ البصـــرة:

أما البصرة فكانت أول مدينة ينشئها المسلمون، وقد أنشئت بين أعوام ١٤ إلى ١٦ للهجرة، وكان ذلك على يد عتبة بن غزوان قائد جيوش الخليفة عمر بن الخطاب، وكانت بذلك أول مرحلة في حياة الاستقرار، وقد تم تخطيطها وفقا لخطة هندسية وتولى عملية التخطيط «أبو الحرباء عاصم بن دلف» برغم أن البعض يقول بأنها قامت على أنقاض مدينة قديمة ذات أصل يوناني حينا أو فارسي حينا آخر، وأن آثار هذه المدينة تتمثل في «الخريبة» التي تمثل حاليا جزء من البصرة المعاصرة، برغم ذلك فان الأرجح أن البصرة مدينة عربية

النشأة وإسلامية التخطيط منذ قيامها لأن الفرس لم يألفوا أن تكون لهم مدن على تخوم الصحراء.[21]

وتقع البصرة على شط العرب في منطقة تكثر بها المستنقعات والأهوار، وتحتل موضعا قريبا من النهر يتأثر بمنسوب السهل الفيضي ولذلك فانها لا ترتفع عن مستوى سطح البحر إلا بما لا يجاوز ثلاثة أمتار. وقد بنيت في أول الأمر على شكل معسكر يسهل اتصاله بريا بشبه الجزيرة العربية بما لا يسمح بوجود حاجز مائي بين جيش المسلمين من ناحية والاتصال البري بقاعدة الاسلام في المدينة المنورة من ناحية أخرى، وكانت تلك هي أفكار عمر بن الخطاب في اختيار مواضع المدن وقد أوصى قواده باتباعها وتنفيذها. وكانت البدايات الأولى لعمران البصرة من مساكن ومبان بدائية من أعواد البوص أو الغاب.

وبدأت عمارتها بانشاء المساجد ودار الامارة وقد أقامهما عتبة من القصب والخيام، وكانت أمامهما دار «رحبة بني هاشم» كما بنى الناس مساكنهم من القصب وجريد النخل، وكانت مساكن أبناء القبيلة الواحدة متجاورة على شكل «خطة». وفي عام ١٧ الهجري حدث حريق ضخم أتى على معظم مساكن البصرة، وهنا استأذن واليها «أبو موسى الأشعري عندئذ» في أن تكون المساكن وغيرها من الأبنية من اللبن المجفف، وقد وافق الخليفة على ذلك على أن تكون المباني المشيدة متلاصقة غير مبعثرة.

وبصفة عامة يمكن القول بأن شكل العمران في بداية نشأة البصرة كان خطيا طوليا بتأثير طبغرافية الموضع ممثلة في وجود رأس الخليج العربي وما يقع إلى شماله من مستنقعات تشكل حاجزا جنوبيا للبصرة أما في شمال البصرة فيوجد هور الحمار ويقع إلى شرقها شط العرب، وبذلك تحدد عمرانها بمحور طولي يمتد من الشمال إلى الجنوب تقريبا، ويقسمها شارع المربد إلى قسمين

شمالي وجنوبي، فهو يمتد من الشرق إلى الغرب باتساع يصل إلى ٣٠ مترا تقريبا، ويمكن اعتباره مقابلا للشارع التجاري الرئيسي في مدننا المعاصرة حيث تنتشر على جانبيه معظم أسواق المدينة. أما الشوارع الثانوية التي تتفرع من شارع المربد فيصل اتساع الواحد منها إلى عشرة أمتار[٢٢]. وربما يعكس معنى التسمية الطابع التجاري للمربد حيث يعني لغة: المكان الذي يجفف فيه التمر أو المكان الذي تقف فيه الابل وتعرض للبيع.

وبمقياس العصر الذي بنيت فيه البصرة فقد كانت شوارعها، حتى الفرعية منها واسعة وكان ذلك بهدف تسهيل حركة الجيوش فيها دخولا أو خروجا لأن الوظيفة الحربية كانت بالغة الأثر في نشأة مدن الاسلام الأولى، ومع ذلك فان البصرة لم تكن محاطة بأسوار أو خنادق في بداية نشأتها.

ويبدو أن كثيرا من القنوات قد حفرت فيها بعذ وتم توصيل مياه شط العرب اليها بحيث أصبحت في البصرة عديد من الطرق المائية على شكل قنوات وترع كانت تنسب لأصحابها الذين احتفروها وكانت تجري فيها الزوارق، وقد أطلق عليها اسم الأنهار وعدد البعض هذه الأنهار الصغيرة بمائة وعشرين ألف نهر صغير[٢٣] وكان من أشهر هذه الأنهار نهر الأبلة الذي يصل ما بين البصرة والأبلة وطوله أربعة فراسخ، وكانت القصور والبساتين متصلة على جانبي هذا النهر في استقامة يظهر معها كما لو كانت بستانا واحدا، ولكن مع ذلك فان الموضع النهري الذي تكثر فيه القنوات والمياه يبدو أنه أدى إلى انتشار المستنقعات التي أدت إلى ارتفاع الرطوبة وبذلك لم تستطع البصرة أن تصمد طويلا كمقر حين نافستها الكوفة لأن هواء الكوفة كان أصح وماءها أعذب[٢٤].

ولكن موقع البصرة كان مناسبا في بداية التوسع الاسلامي بين شبه الجزيرة من ناحية وفارس التي بدأ فتحها للاسلام من ناحية أخرى، وحين توسع المسلمون شمالا بدأ بناء الكوفة بعد البصرة بأقل من عام، ويقال إنه بعد إن تم فتح المدائن عاصمة الفرس في عام ١٦ الهجري على يد سعد بن أبي وقاص فقد أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب وفدا إلى المدينة المنورة يخبره بهذا الفتح، ويقال بأن عمرا لاحظ تغيرا قد طرأ على الرجال فسألهم عن السبب فأخبروه بأن المناخ هو السبب، وهنا أخبرهم الخليفة بأن يسترشدوا في اختيار المكان بما يناسب إبلهم وكتب إلى سعد «ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس فيه بيني وبينكم بحر ولا جسر»، ففعل سعد ذلك واختاروا مكانا مرتفعا يقع على تل يشرف على الفرات، وقد بدأت المساكن فيها بالقصب في البداية ثم أصبحت تبني من الآجر فيما بعد، وقد ظلت الكوفة عاصمة للعباسيين حتى بنيت بغداد[٢٥].

ولا شك في أن موقع الكوفة كان أفضل من موقع البصرة من نواحي كثيرة، وبخاصة ما يتعلق بالطبغرافية والمناخ، فموقع الكوفة أكثر تحررا من المستنقعات والأهوار التي تتأثر بها البصرة، وهي أكثر جفافا واعتدالا في مناخها، وأقل عرضة للتهديد من خطر الفيضان وبخاصة لأن أقدم اجزائها أنشئت على تل مرتفع، ثم هي إلى جانب ذلك أكثر توسطا بين العراق والشام، وكان الانتقال اليها مرحلة نحو الانتقال إلى حاضرة الرافدين في بغداد بعد ذلك كما أن اقليم الكوفة أغنى من اقليم البصرة من حيث الزراعة.

ب ـ الفسطاط:

قد طبق المسلمون نفس معايير الموقع عند اختيارهم لمكان اقامتهم الأول

عند فتح مصر، وكان عمر بن الخطاب قد أوصى عمرو بن العاص أيضا بتجنب عبور موانع مائية، وقال له «لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف»[٢٦]. ولكن ما أن استقر المسلمون وبنوا خيامهم ثم دورهم في موضع الفسطاط، حتى بدأ عبور النهر، وكانت لهم جسور من السفن التي يعبرون عليها النهر، أو كما يخبرنا «ابن حوقل» في حديثه عن الفسطاط بأنها «مدينة حسنة ينقسم النيل لديها إلى قسمين، فيعدى من الفسطاط إلى عدوه أولى، فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة، ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثاني كالجسر الأول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة»[٢٧].

والجيزة لغة هي جانب الوادي أو الناحية أو محل القوم وحلتهم وهي المنطقة التي يمكن عندها اجتياز النهر[٢٨] ولعل عنصراً جديداً هنا قد تمثل في عبور نهر النيل مرتين بعد انشاء الفسطاط، المرة الأولى وهي عند عبور الشاطيء الشرقي إلى الجزيرة أو جزيرة الروضة، ثم بعد ذلك إلى الجيزة أو الشط الثالث كما سبق، فهنا نجد أن الخوف من الحاجز المائي قد اختفى، ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل، فقد دارت مناقشة حول سكن الجيزة وبقاء المسلمين بها، ويروي لنا «ابن دقماق» هذه القصة فيقول «مدينة الجيزة مدينة اسلامية بنيت في سنة إحدى وعشرين وقيل فرغ منها في سنة اثنتين وعشرين، وسبب بنائها أن عمرو بن العاص لما رجع من الاسكندرية في جيشه ونزل الفسطاط، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية، فجعل بها آل ذي اصبح من حمير وهم كثير ونافع بن زيد بن رعيد وجعل فيها طائفة من الأزديين من الحجر بن الهبو من الأزد، وطائفة من الحبشة وديوانهم في الأزد.

فلما استقر عمرو بن العاص في الفسطاط أمر الذين خلفهم في الجيزة أن ينضموا اليه فكرهوا ذلك وقالوا هذا متقدم تقدمناه في سبيل الله عز وجل وأقمنا به، ما كنا بالذي يرغب عنه ونحن به منذ أشهر، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك ويخبره أن همدان وآل ذي اصبح ونافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة، فكتب اليه عمر كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحرا لا تدري ما يفجؤهم فلعلك لا تقدر على غيابهم فاجمعهم إليك ولا تفرقهم، فان أبوا وأعجبوا بمكانهم فابن عليهم حصنا من فيء المسلمين. فجمعهم عمرو وأخبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن، فكرهوا ذلك وقالوا لا حصن لنا أحصن من سيوفنا، وكرهت ذلك همدان ونافع فأقرع عمرو بن العاص بينهم فوقعت القرعة على نافع فبنى فيهم في سنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين، وأمرهم عمرو بالخطط بها»(٢٩).

ومن النص نعرف أنه بعد فترة وجيزة جدا من بناء الفسطاط (في عام ٢٠-٢١هـ) بدأ بناء الجيزة وعبور نهر النيل، وكان ذلك مقدمة فيما بعد ليقترب المسلمون من البحر وتكون لهم أساطيل بحرية ويقومون بمعارك بحرية، فالخوف من الماء اذن لم يستمر طويلا عند المسلمين، ومع ذلك فان مواقع مدنهم الكبرى ظلت داخلية، وإذا كانت الاسكندرية هي عاصمة مصر منذ الاسكندر الأكبر وطوال العصرين اليوناني والروماني، كانت تمثل واحدة من أكبر مدن الدنيا وأكثرها تأثيرا في الفكر، فان المسلمين لم تبهرهم هذه المدينة بحيث يتجهون إلى العيش بها مما كان يعرضهم لأن يكونوا تحت تهديد الأسطول الروماني، وقد حدث بالفعل أن دارت فيها أكثر من معركة بين المسلمين وبين الروم في أعوام ٢٦هـ و ٣١هـ(٣٠). ومن هنا فان اختيار عمرو بن العاص لموقع الفسطاط كان موفقا بدرجة كبيرة، هذا إلى جانب أن موقع الفسطاط،

وما تلاها من المدن كالعسكر والقطائع ثم القاهرة، كان موقعا حاكما ومسيطرا وحصينا. فعند هذا الموقع التلي النهري حيث تشرف تلال المقطم على النيل توجد خاصرة الوادي عند اتصاله بالدلتا ويتحكم الموقع في أي اتصال بين الدلتا والوادي أو بين الطرق عبر النهر إلى الغرب، ولعل العودة إلى هذا الموقع الحيوي الذي يواجه أقدم موقع لعاصمة مصر الموحدة «منف» التي تقع في مواجهة الفسطاط ولكن على الناحية اليسرى من السهل الفيضي، لعل ذلك يمثل واحدا من المواقع الطبيعية المتميزة التي توجد عندها عادة المدن الأمهات التي تتحكم في الاقليم من حولها وتمثل عواصم ذات موقع فعال ومؤثر ومن هنا فان عودة عمرو بن العاص بموقع العاصمة من الاسكندرية إلى الفسطاط كانما كان عودة إلى العاصمة الوطنية التي بناها موحد مصر القديمة سياسيا (الملك مينا) لأن الاسكندرية كانت عاصمة مفروضة من قوة خارجية أتت عن طريق البحر وإذا كان نقل عاصمة مصر من الاسكندرية ذات الموقع البحري إلى الفسطاط تم لأسباب عسكرية فقد تكرر الأمر نفسه عند فتح افريقية (تونس) حيث أن عقبة ابن نافع الفهري بنى القيروان في موقع يناظر موقع الفسطاط في مصر إلى حد ما فهي عقدة للمواصلات البرية وهي تقع قرب اقدام الجبال ومقدمة السهول ويوجد عندها مجرى مائي صغير، ولكن الأهم من ذلك كله أنها بعيدة عن خطر تهديد الأسطول الروماني الذي كان يمكنه أن يهدد قرطاجة أو تونس العاصمة الحالية كما كان يهدد الاسكندرية.

(٣) مواقع مدن التوسع الإسلامي:

امتدت الدولة الاسلامية إلى الاطار العربي في عهد الخلفاء الراشدين (١٢هـ - ٢٦هـ) (٦٣٢-٦٥٦م) وازداد اتساعها في عهد الأمويين (حتى ١٣٢هـ - ٧٥٠م). ثم بلغت أقصى اتساعها في عهد العباسيين (١٣٢هـ -

٦٥٦هـ - ٧٥٠م - ١٢٥٨م) حيث امتدت الدولة الاسلامية إلى الهند وبلاد ما وراء النهر شرقا وإلى الأندلس غربا، ثم ازداد انتشار الاسلام واتسعت أراضيه وأن تكن الدولة الاسلامية قد انقسمت إلى دول عديدة وانفرط عقد الحكم المركزي، وقد حدث ذلك حين قامت الدولة العثمانية بعد دخول الأتراك في الاسلام وتقدمهم إلى الغرب من آسيا الوسطى، كما امتد أثر الاسلام إلى كل من شرق افريقية بعد اجتياز المحيط الهندي وهضبة شرق افريقية، وعبر المسلمون الصحراء الكبرى من شمال افريقيا إلى إقليم السودان الغربي فظهرت الممالك الاسلامية في غرب افريقية أيضا. وقد ظهرت كثير من المدن الاسلامية في هذا الاقليم الفسيح ومن هذه المدن ما يقع في شبه القارة الهندية أو في بلاد ما وراء النهر، ومن أهم المدن التي لعبت دورا هاما في الفكر الاسلامي فقها وتشريعا وهندسة وجغرافية وعلوما متنوعة، كل من بخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر أو تمبتكو في ثنية نهر النيجر الوسطى بغرب افريقيا.

وبالنظر إلى إن مواقع هذه المدن تغطي رقعة كبيرة من العالم القديم فاننا نكتفي هنا بنموذج من هذه المدن وهي المدن الاسلامية في الأندلس.

تمتاز إسبانيا والبرتغال معا بقدر كبير من التباين الطبغرافي، حيث توجد السهول والأودية النهرية إلى جانب الهضاب والمرتفعات والسلاسل الجبلية، كما يوجد تباين مناخي يتفاوت بين غزارة المطر ووجود جفاف نسبي، كما قد تسجل درجات حرارة مرتفعة تصل أحيانا إلى ٤٠ مئوية في فصل الصيف وقد تهبط إلى الصفر المئوي في فصل الشتاء. وحين فتح المسلمون هذا القطر ابتداء من عام (٧١١م - ٩٣هـ) وجدوا فيه مدنا قائمة وحياة نابضة ولكنهم اختاروا مواقع مدنهم وبخاصة عواصم اماراتهم طبقا لمعايير لا تغفل جانب الأمن والدفاع، وظلت حالهم كذلك حتى آخر عهدهم بالأندلس حين سقطت غرناطة في عام ١٤٩٢م بعد قرابة ثمانية قرون.

والمدينة الأسبانية المعاصرة تمثل نسيجا فريدا من عصور التاريخ المختلفة التي مرت على البلاد، وهي متاحف حضارية لكل العصور والحضارات التي تعاقبت فيها، حيث لاتزال كثير من مدن أسبانيا الحالية تحتفظ بأسوارها القديمة التي جددها العرب، ولاتزال هندسة البناء العربية واضحة في عمارة هذه الأسوار وفي بواباتها وقلاعها الحصينة، ونجد ذلك على نحو خاص في مدينة طليطلة Toledo فهذه المدينة محاطة بنهر تاجه Tajo الذي يرسم انحناءة تحيط بالمدينة من الشرق والجنوب والغرب، أما في شمالها فيوجد السور الذي يكمل الدائرة حول المدينة. وحتى الآن يوجد عدد من المعابر التي تربط بين شاطىء نهر تاجه، حيث توجد حاليا ثلاثة معابر أو كباري وجسور لعبور النهر. ففي الشرق يوجد الكوبري الذي لايزال يحمل اسما عربيا وهو القنطرة Alcantara وفي الغرب يوجد كوبري سان مارتن San Martin الذي يرجع الى العصر الروماني وان كان قد شهد تجديدات عربية، ثم يوجد إلى الشمال من ذلك الكوبري الجديد Peunte Nuevo وهو الذي يستخدم حاليا.

ويظهر في مدينة طليطلة أثر الموضع والطبغرافية المحلية، حيث تتباين مناسيب الشوارع ارتفاعا وانخفاضا وتعرجا، ولكن الأمر الهام هو أن القنطرة العربية وكوبري سان مارتن كانا يمثلان نقطتين ذاتي أثر هام في الدفاع عن المدينة وكانت القلاع والتحصينات حولها قوية وكانت مخاطر وجود عازل مائي في حصار المسلمين أو الوقوف عليهم لاتزال قائمة تماما كما كان الأمر في حالة بناء كل من البصرة والكوفة والفسطاط.

وثمة أمر آخر في موقع طليطلة فقد كانت أكثر عواصم الأندلس تطرفا نحو الشمال وهي تكاد أن تتوسط شبه جزيرة أيبيريا، ولعل ذلك يمكن تفسيره بعنصر التحدي، فقد كانت أهم مدينة في مملكة القوط الغربية، واعتبر المسلمون أن موقعها الذي وصلوا اليه في عام ٧١٢م يعتبر موقعا متقدما ينبغي

أن يدفعهم إلى التقدم شمالا وهو ما فعلوه بعد عبور جبال البرانس حتى وصلوا إلى تور في عام ٧٣٢م، ولكن الذي يلفت النظر هنا هو أن طليطلة كان شأنها في ذلك شأن عواصم الامبراطوريات الشرقية التي فتحها المسلمون مثل المدائن والاسكندرية أو مثل قرطاجة في شمال افريقية، ولهذا سرعان ما أصبحت العاصمة في قرطبة التي تقع إلى الجنوب من طليطلة، وقرطبة تقع أيضا على نهر الوادي الكبير Guadalqivir وهي مدينة قديمة وربما كانت قرطاجنية الأصل وسيطر عليها الرومان في عام ١٥٢ ق.م.(٣١).

وقد أصبحت مقر امارة الأندلس، وكان نهر الوادي الكبير صالحا للملاحة في العصر العربي حتى قرطبة وان يكن الآن لا يستخدم ملاحيا سوى خلال ٨٠ كيلومترا فقط بين المصب ومدينة اشبيلية Sevilla . وكانت هذه الأنهار كالخنادق الطبيعية التي تستخدم في حماية هذه المدن وتشرف عليها المدن من التلال المرتفعة والقلاع التي تحمي المدينة وتوجد فيها سرايا الدفاع. وحين تقدم الأسبان في حرب الاسترداد تراجعت العاصمة الاسلامية، بل ان إمارة الاسلام التي كانت تحكم من قرطبة قد تقلصت لتصبح مجرد «مدينة دولة» محاصرة، وكان ذلك في امارة غرناطة Granada التي ظلت جزيرة اسلامية محاصرة فترة طويلة إلى أن سقطت في عام ١٤٩٢ وانتهى الحكم الاسلامي في الأندلس، وهنا لابد من ملاحظة أن آخر امارات المسلمين في الأندلس كانت في موقع جنوبي مما يعني التراجع على العكس من العواصم الأولى التي كانت في الشمال أو في وسط شبه جزيرة ايبيريا.

والواقع أنه يمكننا أن نطبق الأمر نفسه ـ وان كان ثمة حاجة إلى مزيد من الدراسة ـ على مدن هوامش عالم الاسلام في سمرقند وبخارى وفرغانة في آسيا السوفيتية حاليا أو في دار السلام في تنزانيا الحالية، فقد بقى الاسلام في هذه المدن تراثا معماريا وقيمة حضارية وان كان معظم تلك الأقاليم قد خرج من دار الاسلام بالمعنى السياسي.

ثانيا: التركيب الداخلي للمدينة الاسلامية:

رأينا أن المدينة الاسلامية إما أن تكون مدينة سابقة من حيث نشأتها على ظهور الاسلام، ومن أمثلتها مكة ويثرب ودمشق، وإما أنها نشأت كمدن اسلامية من بداية أمرها مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، وكذلك كانت مدن التوسع الاسلامي في معظمها مدنا سبقت الاسلام من حيث النشأة ومنها مدن فارس والهند وما وراء النهر والأندلس. ومعنى ذلك أن تركيب المدن الاسلامية من الداخل إما أن يكون متأثرا بوضع سابق على ظهور الاسلام أو دخوله إلى الأقطار المفتوحة، واما أن يكون هذا التركيب اسلاميا منذ النشأة وإن لم يخل من تأثر بالحضارات السابقة للفرس واليونان والرومان والهنود وغيرهم، أما أهم ملامح التركيب الداخلي فهي كما يلي:

(ا) المنطقة المركزية للمدينة الاسلامية:

تأثر التركيب الداخلي للمدن الاسلامية بنمط موحد في المنطقة المركزية، وكان ذلك في معظمه نتيجة لتركيب مكة، وكما سبق فإن مكة كان محورها منذ الجاهلية هو الكعبة، وكما يقول «ابن حوقل» فان «مكة مدينة فيما بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوبي إلى الشمالي، ومن أسفل جياد إلى ظهر قعيقعان نحو الثلثين من هذا، وأبنيتها من حجارة والمسجد في وسطها والكعبة في وسط المسجد»(٣٢). وهكذا تحدد المسجد كمركز للمدينة الاسلامية، وتأكد ذلك على نحول خاص حين بنى مسجد الرسول بالمدينة المنورة، وإذا كانت الكعبة سابقة على الأسلام، فان إنشاء مسجد الرسول كان في الواقع بداية تطور جديد في حياة يثرب وتحويلا لها إلى «المدينة المنورة»، وينقل لنا «القزويني» الذي عاش حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ذلك بقوله ان «المدينة مسورة، ومسجد النبي عليه السلام في وسطها وقبره في شرقي المسجد»(٣٣). والاختيار هنا يعني أن تنظيم المدينة

الاسـلامية يبدأ باقامة المسجد. وكان المسجد النبوي هو المقر الذي اتخذه الرسول لادارة الدولة، وفيه كان المسلمون يتشاورون في شئونهم العامة من سلم أو حرب، وبجوار المسجد اتخذ النبي عددا من الحجرات (عددها تسع) ليعيش فيها مع أسرته، وكانت تلك الحجرات متصلة بالمسجد ويخرج منها إلى المسجد مباشرة، وأصبح من السنة أن تكون بيوت الولاة ودواوينهم مجاورة للمسجد(٣٤). والمسجد بذلك لم يكن مكانا للصلاة فحسب، ولكنه كان مركزا لادارة شئون الحملة الاسلامية ومكانا لالتقاء أفرادها ببعضهم البعض، ودار ندوة المسلمين حيث يسمعون فيه أخبار جماعتهم وما تحققه من تقدم وما يحيط بها من ظروف، ونقطة انطلاق لنشاطهم الديني والسياسي والعسكري جميعا.

مرة أخرى فقد كان ثمة تأثر في هذا التنظيم بما كان في مكة قبل الاسلام فقد بنى قصي بن كلاب «دار الندوة» التي كانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية (الشمالية) من الكعبة، وكانت دارا رحبة واسعة تدير فيها قريش شئونها العامة، وقد أخذت اسمها كدار للجماعة لأن قريشا كانت تجتمع فيها في حالات الخطر أو عندما يجد جديد وذلك ليتشاور أصحاب الرأي والعقل من الكبار، والذين تخطوا سن الأربعين وكانت قريش تعقد فيها لواءها إذا خرجت للحرب، ومنها تخرج قوافل قريش وتحط هذه القوافل حمولتها اذا رجعت من تجارتها(٣٥).

وبذلك فإن بناء النبي لمسكنه بجوار مسجده كان معلما هاما ما لبث أن تكرر في المدن الاسلامية بعد ذلك. وكان النبي قد نزل في البداية في بيت أحد الأنصار (أبي أيوب) إلى أن تم بناء مسجده وداره. ويحدثنا «ابن هشام» عن بيت أبي أيوب الذي يمكن اتخاذه مثالا للمسكن في صدر الاسلام، فقد كان مكونا من طابقين، وقد عرض أبو أيوب على النبي أن يقيم في الطابق العلوي تقديرا وتكريما له، غير أن النبي رفض ذلك لأن اقامته في الطابق

السفلي من شأنها أن تكون أكثر رفقا به وبزواره من ناحية، وأن اقامة أصحاب الدار في الطابق العلوي تحفظ لهم خصوصيتهم من ناحية ثانية.

وكان بناء مسجد الرسول وداره بداية لعمران المدينة المنورة وايذانا بدور جديد تقوم به كمقر للنبي وقاعدة انطلاق للدين الجديد، كما كان تمهيدا لنمو سريع في حركة العمران والبناء في المدينة، وقد امتد العمران إلى الغرب حتى وصل إلى جبل سلع وامتد الشارع إلى الشرق إلى بقيع الغرقد حيث توجد مقبرة المدينة. وامتد شارع آخر إلى الشمال من المسجد النبوي، وما لبثت مساكن المدينة أن انتشرت على امتداد هذين الشارعين.

غير أن انطلاق عمران المدينة حدث حين وزع النبي «الأرض الموات» التي لا يمتلكها أحد ولا تستخدم في غرض معين ولم يكن لها عندئذ قيمة اقتصادية، فقد قسمت هذه الأرض إلى قطع صغيرة وأعطيت للمهاجرين الذين وفدوا إلى المدينة ليعيشوا في دار الاسلام إلى جوار النبي، وسمح النبي لمن يحيي هذه الأرض الموات بالزراعة في أن يمتلكها، مما جعل الكثيرين يقبلون على ذلك الأمر، وأدى ذلك إلى زيادة عمران المدينة. وكانت بعض هذه القطع قد أعطيت لمن ليست لديهم مساكن واسعة فأنشأوا فيها بيوتا لهم، وكان يطلق على القطعة بما فيها من البيوت اسم «الدار». وقد أمكن لبعض أولئك الذين كانت مساحة قطعهم كبيرة أن يتصرفوا فيها بالبيع، وتحول بعضها إلى مساكن جديدة، وبعضها الآخر إلى حدائق، واسهم ذلك كله في زيادة عمران المدينة واتصال أجزائه ببعضها البعض وأصبحت مترابطة بشوارعها التي تصل بين تلك الأجزاء وحاراتها التي تربط بين المناطق السكنية، كما أقيمت الجسور على وديان المدينة حتى لا تكون هناك فواصل بين نويات العمران في المدينة وبذلك كله تمت مدينة الرسول واتصلت أحياؤها[٣٦].

وترسى عملية اختيار موضع المسجد النبوي أمرا هاما في حياة المدينة

المنورة وفي النظام الاسلامي لادارة المدن، فقد كانت الأرض التي اختارها النبي لاقامة المسجد عليها مملوكة لغلامين يتيمين، وقد دفع النبي لوليهما ثمن الأرض برغم أنه عرض عليه التنازل عنها وعن قيمتها على أن يراضيهما، غير أن النبي رفض ذلك واصر على دفع الثمن للغلامين مما يعني احترام ملكية الأرض ذات القيمة وعدم جواز مصادرتها(٣٧).

وكانت البداية الأولى لمسجد الرسول في المدينة جد متواضعة حيث لم يزد عن سقيفة من جذوع النخل قامت مقام الأعمدة أو الدعامات في حمل السقف، وكان ثمة صحن مكشوف لا سقف له وتفتح عليه حجرات النبي وثمة سور من اللبن يحيط بالصحن من كل جهاته(٣٨). وبرغم التوسعات التي أدخلت على مسجد الرسول في عهد عمر فانه ظل على بساطته إلى أن أعاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بناء المسجد مستخدما الحجر والجبس في بنائه، وأقام أعمدة من الأحجار وجعل سقفه من الأخشاب إلى جانب توسعته.

ويلاحظ أن المدن الاسلامية كانت تقتصر في بداية الأمر على مسجد جامع واحد تقام فيه الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة، وقد حرص عمر بن الخطاب على أن يأمر ولاته في الأمصار المفتوحة بذلك، ولكن توجد إلى جانب ذلك كثير من المساجد الصغيرة التي أقيمت في خطط المدن بحيث يكون لكل مجموعة مسجدها الذي تؤدى فيه الصلوات عدا الجمعة حين ينضمون جميعا لصلاتها في المسجد الجامع، ولذلك كان ثمة رأي بأن صلاة الجمعة لا تقام إلا في الأمصار ولا تجوز اقامتها في القرى، واعتبر المصر هو المدينة التي يوجد بها سلطان يقيم الحدود وقاضي ينفذ الأحكام(٣٩).

وقد بلغ نعدد المساجد الصغيرة أعدادا كبيرة، حتى أن المدينة المنورة بنيت بها كثير من تلك المساجد الصغيرة نتيجة لازدياد العمران واتساع نطاقه فيها في عهد الرسول(٤٠). وقد استمر ذلك في المدن الاسلامية حيث لم تكن

المساجد الاسلامية الجامعة التي تقام فيها الجمعة في مدينة بغداد في عام ٣٠٠هـ (٩١٣م) سوى ثلاثة مساجد فقط على حين بلغت المساجد الصغيرة بها سبعة وعشرين ألف مسجد، وكان في البصرة في وقت مقارب سبعة آلاف من المساجد على حين لم تزد مساجدها الجامعة عن أربعة في القرن الرابع، ولم تكن المساجد الجامعة في ذلك الوقت تزيد في الفسطاط عن سبعة مساجد، أما في قرطبة فكانت توجد آلاف المساجد بينما ظل جامعها الكبير هو وحده الذي تقام فيه صلاة الجمعة، وفي القرن السادس الهجري زادت مساجد قرطبة كثيرا في أعدادها على حين لم تزد تلك التي تقام فيها الجمعة عن أحد عشر مسجدا[٤١].

وهكذا نجد أن المسجد الجامع كان محور الحياة والحركة في المدينة الاسلامية منذ إنشاء مسجد الرسول بالمدينة المنورة، وحتى في اسبانيا المسلمة حدث الأمر نفسه. وإذا كان المسلمون قد اقتسموا في بداية الأمر كنائس النصارى في بعض المدن كما حدث في دمشق أو حولوا بعض الكنائس إلى مساجد كما حدث في القسطنطينية أو في بعض مدن الأندلس مثلما حدث في قرطبة في بداية الأمر، فإن ذلك لم يكن قاعدة وما لبث المسلمون أن اتخذوا مساجدهم ودور عبادتهم الخاصة، وقد ظل المسجد هو المعلم الرئيسي الذي يميز المدينة عن القرية في الأقطار الاسلامية المفتوحة، وحين كان المسلمون ينشئون مدنا جديدة فقد اقتدوا بالنبي وكان المسجد هو أول بناء يقيمونه في تلك المدن، وكان بعض الفقهاء يعارض أحيانا في وجود أكثر من مسجد جامع لصلاة الجمعة مثلما حدث في كل من فاراب وبخارى[٤٢].

وكان وجود «دار الندوة» إلى جانب الكعبة في مكة، ثم انشاء النبي لمسكنه إلى جوار مسجده في المدينة المنورة أثره في اتخاذ الأمراء والخلفاء والحكام لمساكنهم بجوار المساجد الجامعة في المدن الاسلامية وقد حدث ذلك في البصرة

حيث أنشىء المسجد أولا وبجواره دار الامارة وحدث الأمر نفسه في الكوفة التي توسطها المسجد منذ انشائها وعلى مسافة لا تزيد عن ٢٠٠ ذراع منه كانت توجد دار سعد بن أبي وقاص واتخذ فيها بيت المال إلى جانب سكنه(٤٣). أما في الفسطاط فقد كانت دار عمرو ابن العاص وابنه عبدالله متجاورتين وكانت بينهما خوخة (حارة صغيرة) وعرفت المنطقة باسم بين القصرين، وكان قصر عبدالله بن عمرو بن العاص في الدار الصغرى قد بنى على تربيع الكعبة، كما كان في مسجد عمرو باب يقابل الدار الصغرى، وكان للمسجد باب يعرف باسم باب عمرو يدخل منه إلى المسجد(٤٤) وقد ظل الأمر كذلك في المدن الاسلامية، حيث كان القصر الذي يمثل الحكم والادارة يجاور المسجد، بل أن مكة المكرمة قد أنشىء فيها أخيرا قصر ملكي يطل على الحرم مباشرة ويشرف على الكعبة ليكون مقرا للملك أثناء اقامته في مكة، ويقع هذا القصر في أجياد جنوب شرق المسجد الحرام.

أما المعلم الثالث الذي يرتبط بالمنطقة المركزية في المدن الاسلامية فهو الأسواق، ولعل ذلك يكمل ثلاثية الوظائف المركزية التي تظهر بجلاء في كل المدن التي عاش فيها المسلمون أو أقاموها، ونعني بذلك الأسواق لأن المنطقة المركزية كانت تضم إلى جانب المسجد والقصر (أو دار الامارة) عددا كبيرا من الدكاكين والمتاجر التي تحيط بكل من المسجد والقصر، ولعل خروج تجارة قريش قبل الاسلام أو وصول قوافلهم من الشام أو اليمن إلى مكة وارتباط ذلك بدار الندوة يعطي بداية ظهور هذه الثلاثية في مدن الاسلام، وإذا كانت التجارة هي مصدر ثراء العرب قبل الاسلام فقد ظلت كذلك بعد الاسلام، وثمة كثير من الأحاديث عن الصلة بين الرزق والتجارة ولهذا لم يكن غريبا أن يصل الأمر ببعض التجار في المدن الاسلامية لأن يكونوا ثروات ضخمة تصل إلى ملايين الدنانير والدراهم، وكان لدى بعض بائعي المجوهرات في دكاكينهم في بغداد بعض الأحجار الكريمة التي يصل ثمن بعض قطعها إلى ملايين الدراهم

حيث يروى أن يحيى البرمكي عرض على أحدهم شراء عقد بمبلغ سبعة ملايين درهم فلم يوافق البائع ولم يكن ذلك سوى جزء مما في حانوته، وفي عام ٣٠٢هـ صادر الخليفة المقتدر أموال أحد التجار فوصلت إلى ٢٠ مليون دينار، وكان خراج بعض التجار يصل في العام الواحد إلى ٢,٥ مليون درهم وثلاثة ملايين درهم أحيانا، بل ازداد الأمر إلى عشرة ملايين درهم في بعض الحالات، وكان بعض تجار سيراف يزيد رأس مالهم على ٦٠ مليون درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل وغيرها(٤٥). وفي مدن الاسلام القائمة اليوم لاتزال الأسواق محيطة بالمساجد الجامعة الأولى التي أنشئت في هذه المدن، ففي مدينة دمشق لايزال إلى جوار المسجد الأموي أسواق كثيرة من أهمها سوق الحميدية وسوق الخجا، وفي القاهرة توجد حول الأزهر مجموعة كبيرة من الأسواق التي تمتد فيما بين الصاغة وبين القصرين (وهما غير ما يوجد في الفسطاط) والتربيعة والصنادقية وخان الخليلي وغيرها، وفي مكة المكرمة توجد حول الحرم منطقة واسعة من الأسواق سواء في أجياد أو القشاشية وسوق الليل والقرارة والشامية والشبيكة وهي كلها من أنوع القيصريات التي تتجاور فيها الدكاكين الصغيرة التي تمثل معرضا لمنتجات العالم كله تقريبا، وتحيط الأسواق أيضا بالمسجد النبوي في المدينة المنورة، وبرغم التوسعات التي حدثت للحرم المكي والحرم المدني فإن التجارة لم تختف من حولها لأنها تستطيع أن تدفع أعلى ايجارات، كما أن العائد الكبير منها يبرر دفع أسعار مرتفعة لشراء الدكاكين أقرب مايكون للمساجد الجامعة حيث يتدفق المشترون بعد أداء الصلوات. والواقع أننا نجد هذا النمط من ثلاثية المنطقة المركزية في كل المدن الاسلامية من الهند شرقا إلى الأندلس غربا.

(٢) المساكن في المدينة الاسلامية:

كانت المساكن الأولى في المدن الاسلامية شديدة البساطة، ولعلها كانت غالبا من المواد النباتية كالبوص والقصب والغاب الذي تدعمه الأحجار في أساسه والطين الذي يحيط به ثم تدرج الأمر إلى استخدام اللبن حيث يتوفر محليا مصدر يمكن من استخدامه لصناعة الطوب اللبن، أما حيث تتوفر الأحجار فلعل بعض المساكن كانت تبنى منها أو تتخذ بعض أجزائها على الأقل حوائط من الأحجار، وقد بنيت البصرة أولا من البوص، وكذلك الكوفة التي كانت أكواخها أقرب ما يكون شكلا إلى الخيام، وحين تعرضت للحريق استأذن المسلمون الخليفة في أن يبنوا منازلهم من اللبن، فأجابهم إلى ذلك وإن كان قد اشترط ألا يزيد أحدهم على ثلاثة أبيات ولا يطاولوها(٤٦).

وللمسكن في الاسلام حرمة وقداسة وخصوصية، فهو الحصن الذي تعيش فيه الأسرة، وفيه أيضا المال والمتاع، وهو جنة الرجل في الدنيا، ولذلك قيل «ينبغي أن تكون الدار أول ما يبتاع وآخر ما يباع» ولهذا كان للمسكن في المدينة الاسلامية آداب وشروط، وربما تكون الحجرات التي اتخذها النبي بجوار مسجده من الأمثلة في ذلك، حيث تقررت حرمة المسكن وعدم اقتحامه ولو بالصوت المرتفع والنداء، وبذلك احترم الاسلام خصوصية الفرد(٤٧).

وربما يلخص آدب الاسلام في المسكن، قصة بناء منزل مكون من طابقين أي أن به «غرفة» وهي الحجرة العالية، وقد فعل ذلك «خارجة بن حذافة» الذي كان رئيسا لشرطة عمرو بن العاص، وكانت له في الفسطاط دار اتخذها وعرفت باسم «دار القند»، وكان خارجة أول من ابتنى غرفة بالفسطاط وكتب عمرو بن العاص بذلك إلى الخليفة عمر الذي رأى أن هذه الغرفة العالية قد تمكنه من الاطلاع على أسرار الناس أو التلصص عليهم وهم في غفلة وهذا ما يتنافى مع احترام الانسان لحرية الفرد، فكتب الخليفة عمر

ابن الخطاب إلىعمرو بن العاص أن «أدخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرا، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن اطلع من كواها فاهدمها» ففعل عمرو ذلك وعندما لم يبلغ الكوى أقرها»(٤٨).

فقد انزعج الخليفة حين وصل إليه نبأ هذه الغرفة، نظرا لأن مساكن الناس كانت كلها مكونة من طابق واحد، تماما كما لو كانت خياما، وكان ارتفاع المباني أو المساكن أمرا يمكنه أن يجرح الناس ويكشف عوراتهم، وخاصة لأن جزءا من المساكن كان صحنا مكشوفا وكان خطاب الخليفة عادلا، فقد طلب من عامله على مصر أن يتبصر وينظر بعد أن يقف على مرتفع فاذا وجد أنه يكشف مساكن المسلمين أمره بهدم الغرفة وإلا فليتركها إذا لم تكن مرتفعة بحيث تجعله يرى أسرار الناس. ولكن هذه الصورة من المساكن ذات الطابق الواحد سرعان ما تغيرت ويحدثنا «ابن حوقل» عن الفسطاط نفسها فيقول عن المساكن التي رآها في وقته «والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المائتان من الناس وبالفسطاط دار تعرف بدار عبدالعزيز ابن مروان، وكان يسكنها ويصب لمن فيها في كل يوم عهدنا هذا أربع مائة راوية ماء.. ومعظم بنيانهم بالطوب وأكثر سفل دورهم غير مسكون(٤٩).

فاذا كانت هذه الصورة التي يرسمها «ابن حوقل» للفسطاط في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فانها تعطينا مثالا لما حدث من تغير على هندسة المسكن في المدينة الاسلامية، فبعد أن كان يبنى من البوص أصبح يبنى من الطوب ثم أصبح يرتفع إلى سبعة طوابق ويسكن في المنزل الواحد ما يصل إلى ٢٠٠ نسمة، كما أن السكان ينقل اليهم الماء بكميات كبيرة تصل إلى ٤٠ راوية، والراوية هي الدابة التي ينقل عليها الماء أو هي وعاء كبير من جلد البقرة يخصص لحمل الماء، ومؤدي ذلك أن منازل الفسطاط وصلت إلى أحجام تستوعب سكانا مثل بعض العمارات الكبيرة في مدننا المعاصرة.

أما هندسة المنازل الاسلامية، فقد تأثرت كثيرا بهندسة المساجد، فكانت في معظم الأحيان مربعة الشكل يتوسطها فناء مكشوف مثل صحن المسجد، وتوجد الحجرات حول هذا الفناء الذي تفتح عليه الحجرات الداخلية ويمثل متنفس أهل الدار، فهو مكان محمي وبعيد عن أعين الغرباء، وتوجد فيه الشمس والهواء وربما زرعت فيه بعض الأشجار سواء للظل أو للخضرة والزهور ولايزال تصميم البيت العربي كذلك في كثير من المدن الاسلامية وهو يعرف باسم «الحوش» في كثير من الأقطار العربية، ويمثل المسكن بهذه الهندسة مواءمة بين كل من التقاليد والقيم الروحية الاسلامية من ناحية وظروف البيئة وبخاصة المناخ من ناحية أخرى، وكثيرا ما كان الفناء الداخلي أو الصحن المكشوف مصدرا للضوء والهواء للحجرات الداخلية في المنزل، وكان مكانا تقوم فيه ربة البيت بأعمالها في مأمن من عيون الآخرين، كما كان مرتعا وملعبا للأطفال، وقد انتقل هذا الفناء إلى أسبانيا مع الفتح الاسلامي، ولاتزال كثير من المنازل في الأجزاء القديمة من المدن الأسبانية محتفظة بهذا الفناء الذي قد تتوسطه النافورات أو الزهور، وليس وقفا على قصر الحمراء في غرناطة الذي تشتهر فيه تلك الابهاء Patio مثل بهو ونافورة السباع، ولكنه يوجد فعلا في كثير من منازل اشبيلية وقرطبة ولا يرضى سكان مثل تلك المساكن الانتقال إلى العمارات الحديثة في هذه المدن.

كما أن ظروف المناخ الحار في كثير من المدن العربية والاسلامية قد أدت إلى ابتكارات مختلفة في التغلب على حرارة الهواء، سواء في المنازل أو في المساجد أو القاعات والأيوانات، فقد كان ارتفاع المباني ووجود الفتحات العلوية من أساليب تجديد دورة الهواء وخروج الهواء الساخن ودخول هواء بارد محله، كما استخدمت «الملاقف» في مصر كوسيلة للتهوية وتكييف الهواء بطرق طبيعية، وهذه الملاقف تعتمد على تلقي الرياح الشمالية اللطيفة واسقاطها من فتحات علوية ثم تتخلل الجدران ويوجه الهواء البارد إلى الأماكن المطلوب تهويتها من

غرف أو غيرها. كما كان يوجد في مدينة الكويت تقنية مشابهة قبل عصر البترول وظهور أجهزة تكييف الهواء، فقد كانت المساكن مزودة بفتحات تصل ما بين السقف وأرضية الغرف وعرفت باسم «الباجدير» وكانت تؤدي إلى انسياب هواء بارد نسبيا(٥٠).

وإذ كان الصحن المكشوف في داخل المسكن هو أحد عناصر هندسة البناء الداخلية فان هندسة المساكن الخارجية في المدن الاسلامية تمثل إضافة متميزة وغير منقولة، فقد كانت الشرفات والنوافذ الخارجية مغطاة بمشربيات خشبية تضفي زينة وجمالا على المساكن من الخارج، ولكن لم يكن الزينة والجمال فقط هما الوظيفتان الوحيدتان للمشربيات، فقد كانت أيضا ذات صلة بالقيم والأخلاق الاسلامية، فهي تمكن النساء من مراقبة الطريق والتعرف على ما يجري فيه وما يعرضه الباعة من سلع دون أن يراهن المارة، وكانت هذه المشربيات أيضا تتخذ لوضع آنية الشرب ليعمل الهواء على تبريدها، ولاتزال بعض بقايا هذه المشربيات أو «الرواشن» في الأحياء القديمة من القاهرة ومكة وجدة ودمشق وغيرها من مدن الاسلام، بل إن بعضها لايزال يوجد في بيوت مدن الأندلس القديمة في جنوب اسبانيا، بل تمتد أحيانا إلى وسطها في كل من قرطبة وشقوبيه Segovia واشبيلية Seville وغرناطة وهي لا توجد في قصور الأمراء المسلمين الباقية فحسب، بل في بعض المساكن القديمة التي لاتزال باقية في هذه المدن.

(٣) تنظيم المدينة الاسلامية وإدارتها:

يمثل تنظيم المدينة الاسلامية، وإدارتها أو حكومتها، واحدا من أهم الأوجه المشرقة في حياة مدن الاسلام، وإذا كان «ماكس ڤيبر» قد أنكر وجود إدارة للمدن الاسلامية، بمعنى قيام محكمة خاصة وحكومة ذاتية وإدارة مستقلة عن طريق الانتخاب من بين السكان، كما سبق القول، فانه لم يلبث أن ذكر

أن مجتمع مكة قبل الاسلام كان يقوم على أساس اختيار الأشراف لزعيم من بينهم وأن أحياء المدينة الاسلامية كانت تدار بواسطة مجالس من كبار السن وأن الحاكم لم يكن يستطيع أن يتدخل في أمور القضاء(٥١).

ومعنى ذلك أن الاسلام وجد أمامه في مكة تراثا، ويرى البعض أنه بالرغم من أن مجتمع مكة قبل الاسلام كان قبليا في جوهره، فإن الحكم يعتمد على الشورى لدرجة تقترب بالمجتمع من النظام الجمهوري، ولم يكن لأي عشيرة سلطان على أخرى، وكان ثمة مجلس للشيوخ أو «الملأ» الذي كان يجتمع لمناقشة الأمور عندما يجد أمر خطير، ويناقش في «دار الندوة» ما يمكن عمله إزاء ذلك، فاذا اتفقت العشائر جميعا أصبح رأي المجلس ملزما، أما إذا لم يحدث الاجماع فإن القرارات لا تكون ملزمة. وبالرغم من أن المجلس لم يكن يعتمد في أعماله على نص مكتوب، فقد كان العرف والعادة يمثلان قانونه(٥٢).

وتزخر أدبيات الادارة المحلية وحكومات المدن بكثير من الأمثلة عن نظم الحكم في المدن الغربية، وربما يكون التطور الاجتماعي والسياسي للمجتمعات الأوروبية هو السبب الرئيسي في ذلك، وبخاصة في عصر الاقطاع، وعندما كانت الحرية وقفا على سكان المدن، وحين صدرت لبعض المدن الأوروبية دساتير تحدد حقوق سكانها وواجباتهم اعتبر ذلك بمثابة تكريس لمبدأ الحكم المحلي الذي يقوم به سكان المدن لأنفسهم، ولعل الدستور الذي «منحه» لويس السادس لمدينة لــور Lorres في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرا ما يشار إليه في هذا الصدد، فقد نص على أن يكون سكان المدينة أحرارا إذا عاشوا فيها مدة تزيد على عام كامل، وأعفى سكانها من الخدمة العسكرية أو السخرة في العمل، وأصبح من حقهم ألا يحاكموا إلا في مدينتهم طبقا لقانونهم الخاص، وفي الفترة نفسها «منح» هنري الأول لمدينة نيوكاسل في انجلترا حقوقا مماثلة لما منحه لويس السادس للمدينة الفرنسية(٥٣). ولكن تسليط الضوء على نظم

الحكم في المدن الاسلامية لم يكتب له أن ينتشر في كثير من الدراسات خارج إطار الدراسات عن الحضارة الاسلامية، ومن ثمة نحاول هنا أن نفعل ذلك في إيجاز، وسندرس ذلك من خلال أول دستور لمدينة إسلامية، من حيث أطرافه وشروطه، ثم كيف تدار المدن الاسلامية وتنظم مرافق الحياة فيها من خلال ديوان الحسبة.

أ - دستور المدينة المنورة:

وهو يمثل أول دستور لمدينة إسلامية، إن لم يكن أول دستور بالمعنى الحقيقي، فهو لم يكن سوى نتيجة لكثير من المناقشات التي أسفرت عنه، كما أنه كان في الغالب دستورا مرنا يقبل إضافة نصوص جديدة إليه إذا دعت الحاجة لذلك، وهو يمثل عقدا اجتماعيا وسياسيا بين مجموعة من الأطراف، فقد اشترك فيه المسلمون وعلى رأسهم النبي ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، وذلك إلى جانب من اشترك فيه من يهود المدينة الذين بقوا فيها وقبلوا بما جاء في هذا الدستور أو (الصحيفة) كما نقلها الينا محمد بن اسحق (١٥٠هـ ٦٦٧م) كوثيقة مكتوبة، وهذا الدستور لم يكن منحة أو فرضا من جانب قوي على آخر ضعيف وربما كانت توجد منه نسخ تحتفظ الأطراف المعنية بها، وقد اشتركت فيه فئات المهاجرين من قريش والأنصار من «يثرب» ومن لحق بهم وجاهد معهم، وكذلك اليهود الذين بقوا بالمدينة بعد القضاء على الفئات المعادية منهم من بني النضير وبين قريظة وبني قينقاع، وقد عددت الصحيفة كافة الأطراف التي تقبل بهذا الدستور الذي ينظم أمور الحياة في المدينة والذي كانت أهم مواده ما يلي(٥٤):

(١) إن الأفراد جميعا متساوون في الحقوق والواجبات، وأن «المعروف» أو العرف هو أساس العلاقة بينهم، بما يقبله العقل والدين ويرضاه الناس.

(٢) إن كل وحدة اجتماعية داخل الجماعة لها نظامها الداخلي، على ألا يتعارض ذلك مع العدل والمساواة.

(٣) أن الأمن مسئولية الجماعة كلها مجتمعة، وأن من يخل بذلك الأمن يحاسب ولو كان واحدا من الجماعة.

(٤) حق الجوار مكفول وتلتزم الجماعة بحماية المستجير بها.

(٥) إعلان الحرب أو السلم مسئولية المجتمع كله ولا تنفرد بها مجموعة واحدة أو طرف دون غيره، ولابد من اتفاق الأمة كلها على ذلك.

(٦) المسئولية فردية ولا يعاقب أحد بجريرة غيره.

(٧) لا يجوز حماية مرتكبي الحوادث أو إيواؤهم ونصرهم.

(٨) أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

(٩) أنه لا يجوز أن تكون يثرب «المدينة المنورة» أرض حرب لمن رضى بهذه الصحيفة، وأن المدينة أصبحت بذلك دار أمان لسكانها.

(١٠) إذا هوجمت يثرب تشترك كل الأطراف في الدفاع عنها.

(١١) حرية العبادة مكفولة لغير المسلمين من اليهود الذين هم طرف، وان لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وكذلك الحال بالنسبة لمواليهم.

(١٢) من قتل مسلما عمدا فجزاؤه القتل أو الدية اذا رضي أهله بذلك.

(١٣) إذا حدث خلاف في الأمر يرد إلى رسول الله ليقضي فيه بأمر الله.

وليس ثمة من تعليق على جلاء النصوص التي وردت في هذا الدستور، وأنه سبق بقرون كثيرة كل دساتير المدن الأوروبية التي صدرت في العصور الوسطى وأنه كان تقدميا بدرجة لم تعرفها كثير من الدساتير الحديثة، وهو يوضح كيف أن «دولة المدينة المنورة» التي مثلت النواة التي انتشر منها الاسلام وامتدت دولته ارتضت دستوراً مكتوباً يحدد الحقوق والواجبات منذ أربعة عشر قرنا كاملة، ولم تكن الدولة قد استقرت أو اتسعت بعد ومع ذلك فقد صدر لها هذا الدستور. ونحن نقرر ذلك هنا لتوضيح أن هذا الدستور كان في حقيقته أول دستور يصدر لمدينة اسلامية.

ب ـ المحتسب وتنظيم المدينة الاسلامية:

يعتبر ديوان الحسبة أهم معلم في ادارة المدن الاسلامية، وإذا كنا في مدننا الحديثة نعرف كثيرا من النظم عن «البلدية» و «مجالس المدن» وسلطات «عمدة المدينة» أو «محافظ المدينة»، وهي كلها مؤسسات تشرف على إدارة مختلف مرافق المدينة المعاصرة، فإن ديوان الحسبة كان يقوم بهذه الأعمال وكانت تقع تحت ادارته بلغة اليوم كثير من الاختصاصات مثل الصحة والتعليم ومراقبة التموين والمكاييل والموازين والضرائب والجمارك والشرطة العامة وشرطة المرافق والأسواق، وشئون البيطرة، وتراخيص البناء والهدم والتنظيم أو الادارات الهندسية والمياه والانارة والطرق والجسور والكباري والآداب العامة ومراقبة الجودة الصناعية والتسعيرة.

وظهور مصطلح الحسبة والمحتسب يرجع إلى مطلع القرن الثاني الهجري إذ ترجع إلى عهد يزيد بن هبيرة عامل مدينة واسط (١٠٣هـ ـ ٧٢١م) وقد أخذت اختصاصات ديوان الحسبة في الوضوح والزيادة مع مضي الزمن، وحدث ذلك على نحو خاص في حواضر الاسلام الكبرى وبخاصة في بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية، وقد انتقل لفظ المحتسب إلى الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري ثم انتقل بعد عودة اسبانيا إلى المسيحيين تحت اسم Al-motasaf وفي أخرى Almotacen بل أن أهمية ديوان الحسبة أدت إلى أن ملوك اسبانيا المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين اقليما أبقوا فيه المحتسب ليدير الأمور فيه[٥٥]. وكان المحتسب يتقاضى أجرا مجزيا عن عمله كل شهر، بحيث يكفل له مستوى كريما من الحياة ويضمن له البعد عن مزالق الرشوة وشبهاتها[٥٦]. والحسبة في الاسلام منصب ديني من قبيل القضاء، وكان عملها أصلا من أعمال القاضي قبل أن يصبح لها عمل مستقل، بل انها كثيرا ما كانت تناط بالقضاة في عهد الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس، وكان ديوان

الحسبة في الأندلس يعرف بـ «خطة الاحتساب» وكان صاحب هذا المنصب يتابع عمله بنفسه في الأسواق مع أعوانه(٥٧).

وقد بلغ من أهمية ديوان الحسبة ووظيفة المحتسب، أنه كانت توضع مؤلفات تهدف إلى ارشاد من ولي هذا المنصب وتبصره بأعبائه، وربما يكون من أهم هذه المؤلفات كتاب الشيزرى (المتوفى عام ٥٨٩هـ) والذي يذكر أنه يقصد بكتابه الذي طلب اليه أن يؤلفه، أن يكون مختصرا وافيا في سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع، ليهتدي به من يقوم بهذا المنصب، وأنه راعى فيه الايجاز وضرب الأمثلة ليعيش عليها المحتسب مهتديا بالشريعة ولذلك ينبغي أن يكون المحتسب فقيها عالما بأحكام الشريعة، لأنه إذا كان جاهلا اختلفت عليه الأمور ووقع في المحظور والمحذور(٥٨).

وأهم الشروط التي يضعها الشيزرى لمن يتولى وظيفة المحتسب هي:

(١) العلم بالشريعة، وأن يعمل بما يعلم.

(٢) أن يكون قدوة في النظافة سواء في بدنه أو ثيابه.

(٣) أن يكون من شيمته الرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، وأن يكون متأنيا في توقيع العقوبة، وأن يعطي الفرصة لمن يخطئون في التوبة قبل أن ينزل بهم العقوبة.

(٤) أن يكون «عفيفا على أموال الناس، متورعا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات، فان ذلك رشوة، وقد قال النبي ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي» ولأن التعفف عن ذلك أصون لعرضه وأقوم لهيبته».

(٥) أن يلزم المحتسب غلمانه بهذه الشروط، لان التهمة قد تلحق بالمحتسب نتيجة لفعل أعوانه في قبول الهدايا والرشوة، لذلك فإن عليه أن يتخلص ممن يفعل ذلك صونا لنفسه واتقاء للشبهات(٥٩).

اختصاصات المحتسب

كانت اختصاصات المحتسب تشمل أمورا كثيرة يمكن ايجازها على النحو التالي :-

(١) فيما يختص بتنظيم الأسواق:

كانت معظم المدن الاسلامية ذات أسواق مسقوفة، ولايزال بعض هذه الأسواق قائما إلى اليوم مثل «سوق الندى» في جدة وسوق «الغزة» في مكة المكرمة وسوق «الحميدية» و «الخجا» في دمشق وخان الخليلي في القاهرة «والسوق المغطى» في استنبول وغيرها من الأسواق المماثلة في مدن الاسلام الكبرى والمتوسطة جميعا، وكانت الأسواق الاسلامية منذ عصر بعيد، أسواقا متخصصة، «لكل تجارة شوارع وحوانيت معلومة، ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، فكل أهل تجارة منفردون، بتجارتهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم»[٦٠]. فالأسواق اذن كانت أسواقا متخصصة وكانت الأنشطة المتجانسة تتجاور فيها على حين تتباعد الأنشطة المتنافرة، فإلى جانب أسواق الأقمشة والثياب توجد دكاكين الرفائين، بينما تبعد حوانيت الخبازين والطباخين والحدادين عن دكاكين العطارين والبزازين - باعة الأقمشة - وذلك اتقاء لخطر الحريق، وإذا كان المناخ الحار قد أدى إلى وجود السقائف في الأسواق لحماية البضائع والمشترين فقد كانت السقائف تحظر أحيانا إذا ما ترتب على وجودها ما يقلل الضوء ويخدع المشترين وخاصة بالنسبة لألوان الأقمشة، وعندئذ كانت الأسواق تصبح مكشوفة[٦١]. كما يحدثنا «المقريزي» عن وجود سوق خاص بالتفاح في القاهرة، وأن به عدداً من الحوانيت التي تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة، لطيب حسن منظرها، وتأنق الباعة في تنفيذها واحتفافها

بالرياحين والأزهار، وبين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل إلى الفواكه حر الشمس[٦٢].

وفي مواصفات الأسواق وتنظيمها يرى «الشيزري» أن تكون واسعة على نمط أسواق الرومان، ولا يجوز لأحد من السوق اخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأن الطريق حق للمارة ولا ينبغي الاعتداء عليه فاذا حدث ذلك أزاله المحتسب. وإلى جانب تخصيص أسواق للحرف المتجانسة فانه يجوز للمحتسب أن يجعل لكل مهنة «عريفا» خبيرا بنشاطها ليراقب الجودة ويمنع الغش ويطالع أحوال أرباب مهنته ويخبر المحتسب بأي تعديل يمكن أن يطرأ على الأسعار، كما أنه لا يجوز الاحتكار لأي سلعة خاصة إذا أريد بذلك حبسها انتظارا لرفع سعرها، وللمحتسب أن يجبر محتكري السلع ببيعها، وهو يمنع دخول ما يسبب قذارة الأسواق مثل الحطب والتبن والسماد والرماد، كما يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين وما يؤذي الناس كما يشترط أن تكون المكاييل دقيقة، وأما القصابون فيمنعهم المحتسب من إخراج اللحوم عن حد مصاطب حوانيتهم حتى لا تلوث ثياب الناس، وله أن يختبر سلامة اللحوم المذبوحة، وكذلك الحال في كل ما يقدم من طعام في الأسواق[٦٣].

(٢) فيما يختص بتنظيم الشوارع والمساكن:

قسمت المدينة الاسلامية إلى وحدات هي الشارع أو الدرب أو النهج وكان يتفرع منها أزقة وحارات، وكان لكل ذلك أبواب تغلق في الليل، وبها مصابيح تضاء، وتشدد الحراسة ويقبض على من يسير في الليل دون سبب مقنع للحراس. وربما أدى ضيق بعض الطرقات من ناحية وكثرة المارة من ناحية أخرى إلى تشديد المحتسب على أصحاب الدواب أن يعلقوا أجراسا في

أعناق دوابهم حتى تحدث أصواتها تنبيها للمشاة وخاصة في الأسواق فيتجنبوها(٦٤).

ولا يجوز لأحد أن يخرج جدار داره بحيث يعتدى على حق الشارع والمشاة كما لا يجوز أن تنصرف مياه الأمطار من ميازيب أسطح المنازل بحيث تؤذي السائرين ولكن على ملاك المنازل أن يجعلوا بدلا منها قنوات محفورة في الحائط وأن تكسى بمادة عازلة بحيث لا تصب في الشارع، كما نظمت عملية الصرف الصحي وبخاصة في فصل الصيف، إذ لا يجوز أن تترك في الشوارع في آبار مكشوفة ولا بد من أن تكون «بياراتها» في داخل المنازل داخل حفرة(٦٥).

وكان احترام الشارع يمنع إقامة أي بناء يعترض حق المشاة فيه، حتى ولو كان هذا البناء مسجدا، وعلى الرغم من أن المآذن كانت عالية ليرفع منها الأذان بالصلاة في أوقاتها، فقد كانت حرمة المساكن تقتضي أحيانا استحباب أن يكون المؤذن في النهار من المكفوفين حتى لا يكشف أسرار ما يجري على أسطح المنازل أو في وسط صحونها، مما يعتبر نوعا من التجسس المنهي عنه، أما قيام الليل على المآذن أو قراءة القرآن بصوت مرتفع، فإن هذا يمنع نوم الناس ويخلط على المجتهدين قراءتهم، ولهذا فهو أمر غير مقبول(٦٦). بل إن الأمر قد وصل إلى حد الشكوى من واعظ مسجد قرطبة الذي كان يستيقظ في جوف الليل ويعتلي سقف المسجد المجاور لداره ويؤذن ويبتهل بالدعاء حتى مطلع الفجر، وتضرر منه جيرانه فشكوه إلى القاضي المسئول عن أحكام السوق بالحسبة(٦٧).

وكان المحتسب إلى جانب ذلك يقوم بأعمال كثيرة مثل مراقبة الآداب العامة في الأحياء السكنية والأسواق، والتفتيش على مراعاة المواصفات الصحية في الحمامات العامة والمطابخ التي كان معظم الناس يتناولون طعامهم فيها وكان يمنع ذوي العاهات المعدية من العمل في هذه المجالات أو التردد عليها، ويأمر

بتنظيف المساجد والشوارع والأسواق وإزالة أي مخلفات تؤدي إلى نشر الروائح الكريهة أو التي يمكن أن تتولد فيها الحشرات ناقلة الأمراض، وكذلك كان يفتش على محلات العطارة والصيدلة والمدارس والمخابز والحرف الأخرى التي كانت نوجد في المدينة، كما كان من سلطته أن يأمر بهدم المساكن الآيلة للسقوط.

وبعد، فإن لنا أن نتساءل: هل تؤدي سلطات الادارة أو الحكم المحلي في المدن شيئا أكثر من ذلك؟ أليست هذه هي الصورة المثلى لادارة المدينة وخاصة إذا ما توفرت في القائمين عليها الشروط الشرعية التي ينبغي أن يتحلى بها المحتسب ومعاونوه، ومن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

لقد كانت المدينة الاسلامية في عصورها الزاهية مثالا للتوازن بين امكانات الموقع والتركيب الداخلي، كانت لا تنمو عمرانياً أو سكانياً إلى الحد الذي يهدد بتوازن المحيط الحيوي لها، ولذلك كانت دائما مدنا نظيفة غير ملوثة، ولم تكن مصادر تموين تلك المدن من الريف المحيط بها مهددة إلا إذا حدث تهديد عام للانتاج الزراعي كله، وليس غريبا أن سكان تلك المدن كانوا متوازنين من حيث العدد الكلي أو التوزيع الداخلي على الأحياء، مما يجعل معظم كتاب الجغرافيا العربية والبلدانيين يصفون المدن الاسلامية بعبارات شبه موحدة، بأنها زاهرة عامرة بالتجارات، ويتحدثون عن مرافق المدن الاسلامية بدرجة تجعلنا نرثى لحال كثير من المدن المعاصرة في عالم الاسلام، وقد حدث اختلال واضح بين موارد أقاليم تلك المدن وبين نموها الذي حدث عشوائيا في كثير من الحالات فانحدرت مستويات المساكن فيها لتصبح من بقايا الصناديق ورقائق الزنك، وكثر عدد السكان المهاجرين من الريف بالآلاف كل يوم تطلعا إلى فرصة أفضل دون أن يتوفر لهم الحد الأدنى من المتطلبات التي تحتاجها المدينة، وبينما كانت ادارة المدن الاسلامية في الماضي مثالا على التوازن والعدل أصبحت اليوم في كثير من الحالات أمثلة للفوضى، ولعل ذلك يقتضي

ضرورة المراجعة الأساسية لحال كثير من هذه المدن الاسلامية لتصبح مرة أخرى مدنا زاهرة وعامرة.

الهوامش والتعليقات

(١) كان سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في عام ٤٧٦م، ويرى بعض المؤرخين ومنهم المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بأن «النهضة» التي بدأت في ايطاليا شهدت الفترة المتأخرة من العصور الوسطى الأوروبيةخلال القرنين الممتدين بين أعوام ١٢٧٥-١٤٧٥م. انظر، سعيد عاشور، المدينة الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٧، وانظر أيضا.

Toynbee, Arnold, A study of History, Thames and Hudson, Oxford, 1983, p. 456.

(٢) فتحت دمشق في عام ٦٣٥م (١٤هـ) وسقطت المدائن عاصمة كسرى في عام ٦٣٧م (١٦هـ) وتم فتح مصر خلال الفترة بين أعوام ٦٣٩-٦٤١م، (١٨-٢١هـ) وفي عام ٦٤٣م (٢٣هـ) تم فتح طبرستان وأذربيجان ومكران وغزو خراسان في الشرق واستيلاء عمرو بن العاص على أقاليم برقة وطرابلس في الغرب، وحدث اكتمال فتح بلاد فارس في عام ٣١ هجرية (٦٥٢م) ثم فتحت كابل في عام ٤٣هـ (٦٦٤م) وتم عبور نهر جيحون (أموداريا) في عام ٥٤هـ (٦٧٤م) إلى بخارى. انظر عبدالسلام الترمانيني، أزمنة التاريخ الاسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء الأول، المجلد الأول، ١٩٨٢، . ص ٣٧-٨٥ وانظر أيضا:

Atlas of World History, Penguin, Harmondsworth, 2 vols., 1980, vol.1 p.134.

(٣) Weber, Max, The City, Translated by Don Martindale and Gertrud Neuwirth, the Free Press, New York, 1966, pp.80-91.

(٤) تجنبا لأي لبس فإن أي اشارة إلى «المدينة» التي اتخذت مقرا للدولة الاسلامية منذ هجرة الرسول ﷺ اليها ستكون على أساس استخدام تعبير «المدينة المنورة» وان كانت الصفة قد ألحقت في فترة تالية، ولكن سوف نستخدم ذلك التعبير لعدم الخلط بين تعبير المدينة على اطلاقه و «المدينة» تحديدا في حديثنا عن مدينة الرسول.

(٥) Hourani, A.H., The Islamic City in the light of Recent Research, in Hourani, A.H., and Stern, S.M., eds., The Islamic City, Oxford, 1970, pp,11-15.

(٦) المقدسي (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري) عاش حتى أواخر القرن الرابع الهجري (توفي عام ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دي خويه، ليدن، ١٩٠٦، ص ٤٧.

(٧) ياقوت الحموي، أحد كبار الموسوعيين من الجغرافيين المسلمين وله أكثر من مؤلف وأشهر ما كتبه معجم البلدان والمشترك وضعا والمفترق صقعا، وقد توفى ياقوت (أو شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي) في عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م)، انظر عبدالعال عبدالمنعم الشامي، مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، جامعة الكويت، ١٩٨١، ص ص ٥١-٥٣.

(٨) وليد عبدالله المنيس، التفسير الشرعي للتمدن، النشرة الجغرافية لقسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية الكويتية، عدد ٦٢، فبراير ١٩٨٤م، ص ٢١، وقد توفى ابن أبي الربيع في عام ٢٧٢هـ (٨٨٦م) وانظر أيضا ناجي التكريتي، الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع مع تحقيق كتابه «سلوك المالك في تدبير الممالك، دار الأندلس بيروت، ١٩٨١.

(٩) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محى هلال السرحان، دار النهضة العربية، بيروت، ٩١٨١، ص ص ١٦٢-١٦٣.

(١٠) Chisholm, M.,Rural Settlement and Land Use, Hutchinson, London, 1966, pp.21-26; Alexander, J.W., Economic Geography, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1963, pp.613-616.

(١١) الماوردي، المصدر السابق، ص ص ١٦٣-١٦٤.

(١٢) ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد بن الحسن)، (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ ١٣٣٢-١٤٠٦م)، المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي، لجنة البيان، القاهرة، ١٩٥٨، الجزء الثالث، ص ص ٨٣٩-٨٤٠.

(١٣) يستخدم الاسم العربي «القناة» حتى في إيران حاليا، ويبدو أن حفر القنوات يمثل تقنية قديمة في إيران لأن كثيرا من المصادر تشير إلى أن الفرس هم الذين قدموا هذا الأسلوب إلى شبه الجزيرة العربية ولكن هذه التقنية تمتد إلى شرق إيران في باكستان وأفغانستان، وقد نقلها العرب إلى الأندلس ثم نقلت فيها بعد ذلك إلى العالم الجديد بواسطة الأسبان، وأما الدُّبول ومفردها دبل فهو المصطلح الذي يستخدم في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية وخاصة في وادي فاطمة حيث سبق للمؤلف أن نشر مع زميله الدكتور السيد الحسيني مقالا عن الجوانب الجغرافية له في: الخفجي، العدد ٦ المجلد السادس سبتمبر ١٩٧٦، ص ص ١٢-٢٩.

(١٤) أحمد مختار العبادى، الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية في مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول الكويت يونية ١٩٨٠، ص ص ١٤٩-١٥٠.

(١٥) أحمد علي اسماعيل، دراسات في جغرافية الاسلام، معهد الدراسات الاسلامية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ٤٣-٤٤.

(١٦) أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥، ص ص ١٠٠-١٣٧.

(١٧) فؤاد علي رضا، أم القرى: مكة المكرمة، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٧٩، ص ص ١٩٧-٢٠٦.

(١٨) أحمد ابراهيم الشريف، المصدر السابق، ص ص ٢٨٧-٢٩٠.

(١٩) الآطام كلمة تعني في العبرية الجدران العالية والحوائط المرتفعة التي لا توجد بها نوافذ، وقد دخلت العربية بهذا المعنى، انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في الجزيرة العربية، القاهرة ١٩٢٧ ص ص ١١٦-١١٧. وانظر أحمد ابراهيم الشريف، المصدر السابق، ص ص ٢٩٣-٣١٩.

(٢٠) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٥، ص ص ٤٢-٤٣، ص ٥٣.

(٢١) رجب بركات، عامان مؤثران في حياة البصرة: ١٤هـ و ١٣٢هـ، مجلة الخليج العربي، عدد خاص بالبصرة، جامعة البصرة، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، ١٩٨٠، ص ١٤٩.

(٢٢) عبدالرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٠.

(٢٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، مراجعة وتعليق حسين مؤنس (٥ أجزاء) القاهرة، بدون تاريخ، دار الهلال، الجزء الأول ص ١١٨.

(٢٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ ص ٢١٢. (وابن حوقل واحد من الجغرافيين العرب المجيدين وقد توفى في عام ٣٦٨هـ ٩٧٨م).

(٢٥) جرجي زيدان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٧٦-١٧٩، وانظر مؤيد جواد بهجت الجغرافيا التاريخية لمدينة البصرة، في الأمانة العامة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، الكتاب السنوي الثالث، مركز الوثائق التاريخية، ديوان ولي العهد، دولة البحرين، ص ص ١٤٩-١٩٦.

(٢٦) محمد عبدالله عنان، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣١، ص ١٣.

(٢٧) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء الأول ص ١٤٧.

(٢٩) ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدم العلائي) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى، بولاق، ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)، نسخة مصورة نشرها المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ص ١٢٥-١٢٦.

(٣٠) عبدالسلام الترمانيني، المرجع السابق، ص ص ٥٢-٥٨.

(٣١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، مصدر سابق، الجزء الخامس ص ص ١٠٥-١٠٧.

(٣٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣٣) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) عاش بين عامي ١٢٠٣-١٢٨٣م انظر كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، صادر وارد بيروت، بيروت ١٩٦٠، ص ١٠٨.

(٣٤) أحمد ابراهيم الشريف، المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٣٥) السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مكة في عصر ما قبل الاسلام، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، العدد ١٠، الرياض، ١٩٨١، ص ٥٥.

(٣٦) حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف، القاهرة، ٩١٧٣، ص ص ١٣٤-١٣٧؛ عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٢١.

(٣٧) تهذيب سيرة ابن هشام، المصدر أعلاه، ص ص ١٢٠-١٢١، وانظر أيضا، البلاذرى، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ص ص ٢٠-٢١، وانظر كذلك، ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، الجزء الأول ص ض ٢٣٦-٢٣٧. وانظر أيضا:
Hitti, Philip Khuri, The Origins of the Islamic State, a Translation of Kitab Futuh Al-Buldan of Al-Baladhuri, Khayats, Beirut, 1966, p.20.

(٣٨) صلاح الدين البحيري، عالمية الحضارة الاسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت - الحولية الثالثة ١٩٨٢، ص ص ٥٨-٥٩.

(٣٩) محمد توفيق بلبع، المسجد والحياة في المدينة الاسلامية، عالم الفكر مجلد ١١، العدد الأول، يونيه ١٩٨٠، الكويت، ص ص ١٦١-١٨٠.
وانظر أيضا ضياء الدين علوي، الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) تعريب وتحقيق عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، حدة البحث والترجمة، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٠، ص ١٧٣.

(٤٠) حسين مؤنس، المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٤١) سعد زغلول عبدالحميد، الحياة الدينية في المدينة الاسلامية، القاهرة ١٩٨٢، ص ٨١، انظر أيضا، السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص ص ٣٧٥-٣٧٧ وراجع أيضا:

(٤٢) Lapidus, Ira M.,Muslim Cities and Islamic Societies, in Lapidus, ., ed., Middle Eastern Cities, Univ., of California Press, Berkeley, 1960, pp.71-72.

(٤٣) عبدالرزاق حسين عباس، المصدر السابق، ص ٣٨.

(٤٤) ابن دقماق، الانتصار، المصدر السابق، ص ٧ و ص ص ٦٠-٦٢.

(٤٥) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الثاني ص ١٣٧، وهو ينقل عن كل من الطبري وابن الأثير والاصطخري وابن حوقل.

(٤٦) المصدر السابق مباشرة، ص ص ١٧٨-١٧٩.

(٤٧) سعد زغلول عبدالحميد، المصدر السابق، ص ٦٠. واقرأ آداب المسكن وخصوصيته في سورة الحجرات.

(٤٨) ابن دقماق، الانتصار، المصدر السابق ص ٦.

(٤٩) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ص ١٣٧-١٣٨.

(٥٠) أحمد علي اسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، ص ص ٧٧-٧٨، انظر أيضا عبدالرسول الموسى، التطور العمراني والتخطيط في الكويت، كاظمة، الكويت ١٩٨١، ص ٣٠.

(٥١) Max Weber, op. Cit. pp.86-97

(٥٢) السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مكة في عصر ما قبل الاسلام، ص ص ٥٢-٥٤.

(٥٣) Dickinson, R.E.,The Growth of the Historic City, inMayer, H., and Kohn, C.E.eds., Readings in Urban Geography, Chicago Univ.Press, 1965, pp.69-72.

(٥٤) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص ص ١٢٣-١٢٦.

(٥٥) أحمد مختار العبادي، المصدر السابق، ص ص ١٥٨-١٥٩.

(٥٦) محمد توفيق بلبع، المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٥٧) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الأول، ص ص ٢٥١-٢٥٢.

(٥٨) الشيزري (عبدالرحمن بن نصر) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة السيد البازالعريني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٤، وقد أعادت نشره مصورا دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ ص ١١٨.

(٥٩) المصدر السابق مباشرة، ص ص ٦-١٠.

(٦٠) اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر) توفى عام ٢٧٨هـ (٨٩١م) كتاب البلدان ليدن ١٨٩٢، ص ٢١٩.

(٦١) عبدالعال الشامي، مدن الدلتا في العصر العربي، من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، غير منشورة، ١٩٧٢، ص ص ٨٧-٨٩.

(٦٢) سعيد عبدالفتاح عاشور، أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته، مجلة عالم الفكر، المجلد ٤، العدد ٢ سبتمبر ١٩٨٣، الكويت، ص ١٩٠.

(٦٣) الشيزري، المصدر السابق، ص ص ١١-٢٩.

(٦٤) سعيد عبدالفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، يونيو ١٩٨٠، الكويت، ص ص ٨٨-٨٩.

(٦٥) الشيزري، المصدر السابق، ص ١٤.

(٦٦) سعد زغلول عبدالحميد، المصدر السابق، ص ص ٦٣-٦٤.

(٦٧) محمد عبدالوهاب خلاف، تسع وثائق في شئون الحسبة على المساجد في الأندلس حوليات كلية الآداب، الحولية الخامسة، الرسالة الثانية والعشرون، الكويت، ١٩٨٤، الوثيقة الثالثة ص ص ١٢-١٤، ص ص ٢٤-٢٩.

المصادر

أولا: مصادر بغير اللغة العربية:

1- Alexander, J.W., Economic Geograpy, Prentice-Hall Englewood Cliffs, 1963.

2- Atlas of World Historry, Penguin, Harmendswerth, 2 vols., 1980.

3- Chisholm, M.,Rural Settlement and Land Use Hutchimsen, London, 1966.

4- Dickineson, R.E.The Growth of the Historic City, in Mayer, H. and Kohn, C.F., eds., Readings in Urban Geography, Chicago Univ., Press, 1965.

5- Hitti, Philip Khuri, The Origins of the Islamic State, a Translation of Kitab Futuh Al-Buldan of Al-Baladhuri, Khayats, Beirct, 1966.

6- Hourani, A.H., The Islamic City in the Light of Recent Research, in Hourani, A.H., and Stern, S.M.,eds.,The Islamic City, Oxford, 1970.

7- Ismail, ahmed Aly, Population and settelement Geography of Wadi Fatima, Saudi Arabia, Bull. Arab Research and Studies, Vol. XI, 1984.

8- Lapidus, Ira M., Muslim Cities and Islamic Societies, in Lapidus, I.M., ed., Middle Eastern Cities, Univ. of California Press, Berkeley, 1960.

9- Toynbee, Arnold, A Study of History, Thames and Hudson, Oxford, 1983.

10- Weber, Max, The City, Translated by Don Martindale and Gertrud Neuwirth, The Free Press, New York. 1966.

ثانيا: المصادر العربية

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد بن الحسن) المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي، لجنة البيان، القاهرة، ٤ أجزاء، ١٩٥٨.

(٣) ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدم العلائي) الانتصار بواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى، بولاق، القاهرة، ١٩٨٣، نسخة مصورة للمكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الافاق الجديدة بيروت، ١٩٨٠ (في جزئين).

(٥) ابن هشام، تهذيب سيرة ابن هشام، تحقيق وتهذيب عبدالسلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.

(٦) أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥.

(٧) أحمد علي اسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٨٢.

(٨) أحمد علي اسماعيل، دراسات في جغرافية الاسلام، معهد الدراسات الاسلامية القاهرة ١٩٨٢.

(٩) أحمد علي اسماعيل، والسيد السيد الحسيني، وادي فاطمة، الخفجي العدد ٦ المجلد ٦، ١٩٧٦.

(١٠) أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية مجلة عالم الفكر، المجلد ١١، العدد الأول، الكويت ١٩٨٠.

(١١) البلاذري، (أبو الحسن أحمد بن يحيى) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

(١٢) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، مراجعة وتعليق حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، خمسة أجزاء بدون تاريخ.

(١٣) حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٣.

(١٤) رجب بركات، عامان مؤثران في حياة البصرة: ١٤ هـ ١٣٢ هـ، مجلة الخليج العربي، عدد خاص بالبصرة المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، جامعة البصرة، ١٩٨٠.

(١٥) سعد زغلول عبدالحميد، الحياة الدينية في المدينة الاسلامية، عالم الفكر، مجلد ١١، العدد الأول، الكويت ١٩٨٠.

(١٦) سعيد عبدالفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية عالم الفكر، المجلد ١١، العدد الأول، الكويت ١٩٨٠.

(١٧) سعيد عبدالفتاح عاشور، المدينة الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٢.

(١٨) سعيد عبدالفتاح عاشور، أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقريزي وكتاباته، عالم الفكر، المجلد ١٤، العدد الثاني، الكويت ١٩٨٣.

(١٩) السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مكة في عصر ما قبل الاسلام، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز الرياض، العدد ١٠، ١٩٨١.

(٢٠) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢.

(٢١) الشيزري (عبدالرحمن بن نصر) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة السيد الباز العريني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٤، نسخة مصورة دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٢) صالح لمعي مصطفى، النمو العمراني وخصائصه في المدينة المنورة، في أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي، المعهد العربي لانماء المدن، الرياض ١٩٨١.

(٢٣) صلاح الدين سيد البحيري، عالمية الحضارة الاسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثالثة ١٩٨٢.
(٢٤) ضياء الدين علوي، الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجري) تعريب وتحقيق عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، وحدة البحث والترجمة، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٠.
(٢٥) عبدالرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣.
(٢٦) عبدالرسول الموسى، التطور العمراني والتخطيط في الكويت، كاظمة، الكويت ١٩٨١.
(٢٧) عبدالسلام الترمانيني، أزمنة التاريخ الاسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت الجزء الأول، المجلد الأول ١٩٨٢.
(٢٨) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١. (انظر مصدر رقم ٥).
(٢٩) عبدالعال عبدالمنعم الشامي، مدن الدلتا في العصر العربي، من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، ١٩٧٧، غير منشورة.
(٣٠) عبدالعال عبدالمنعم الشامي، مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، جامعة الكويت، ١٩٨١.
(٣١) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠.
(٣٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥.
(٣٣) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب)، تسهيل النظر وتعجيل

الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيى هلال السرحان، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١.
(٣٤) مؤيد جواد بهجت، الجغرافيا التاريخية لمدينة البصرة، في الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، الكتاب السنوي الثالث، مركز الوثائق التاريخية ديوان ولي العهد، دولة البحرين، غ.م.
(٣٥) محمد توفيق بلبع، المسجد والحياة في المدينة الاسلامية، عالم الفكر المجلد ١١، العدد الأول، يونيو ١٩٨٠، الكويت.
(٣٦) محمد عبدالله عنان، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣١.
(٣٧) محمد عبدالوهاب خلاف، تسع وثائق في شئون الحسبة على المساجد في الأندلس، حوليات كلية الآداب، الحولية الخامسة، الرسالة الثانية والعشرون، الكويت ١٩٨٤.
(٣٨) المقدسي (شمس الدين محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دي خويه، ليدن، ١٩٠٦.
(٣٩) ولفنسون، تاريخ اليهود في الجزيرة العربية، القاهرة، ١٩٢٧.
(٤٠) وليد عبدالله المنيس، التفسير الشرعي للمدن، النشرة الجغرافية لقسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد ٦٢، فبراير ١٩٨٤.
(٤١) اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر) كتاب البلدان، ليدن ١٨٩٢.

مصادر الأشكال والخرائط

١ـ شكل (١) الخريطة الركنية للفتوح الاسلامية مصدرها:

The Penguin Atlas of world History, vol.1,p.134.

٢ـ شكل رقم (٢) مكة المكرمة في عام ١٩٠١ عن:
ابراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ص ٢١٨.

٣ـ خريطة التركيب الداخلي وشبكة الشوارع من مكة المكرمة وخريطة التركيب الداخلي لشبكة الشوارع في المدينة المنورة عن:

W.C., Brice, ed., An Historical Atals of Islam,

E.J.Brill, Leiden, 1981, p.23.

٤ـ مخطط المدينة المنورة عام ١٩١٤ لموريتز عن، صالح لمعي مصطفى، المدنية المنورة، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠.

سلسلة أعداد النشرة لعامي ١٩٨٦ و ١٩٨٧

العنوان	المؤلف
٨٥- النقل بالسكك الحديدية في الوطن العربي	د سعيد احمد عبده
٨٦- مشكلة الاسكان في دولة الكويت	د. عبدالله الكندري
٨٧- مكة المكرمة دراسة في تطوير النمو الحضري	د. محمود السرياني
٨٨- الميزانية المائية لحوض وادي فاطمة	د. محمد سعيد البارودي
٨٩- فصلية الأمطار في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وآسيا العربية	د. نعمان شحادة
٩٠- أثر المكان الأمثل	د. سميح أحمد عودة
٩١- العلاقة بين درجة خشونة القاع ومقدرة النهر على النحت والوصول الى مرحلة التوازن	د. محمود دياب راضي
٩٢ - أنظمة تسمية الشوارع والميادين وترقيم المساكن	د. غازي مكي
٩٣- التقاليد والتحديث والجغرافيا	عبدالرحمن سعود البليهد
٩٤- الاسواق المركزيه في مدينة الرياض ودراسة جغرافية في التوزيع السلوكي	د. شوقي بن ابراهيم مكي
٩٥- المواد الاولية الزراعية في الاقطار النامية بين الاحتكار ومنافسة البدائل الصناعية	الاستاذ الدكتورعلي علي البنا
٩٦- مفهوم جغرافية السكان في الصين واليابان	د. أمل العذبي الصباح
٩٧- سكان دولة الامارات	د. عبدالحميد غنيم
٩٨- حول مشكلة الحت وانجراف التربة في جبال سورية الساحلية (محافظة طرطوس)	د. محمد اسماعيل الشيخ
٩٩- تطور الوظيفة الصناعية في المدينة السعودية	د. محمد حمد الرويثي
١٠٠- موارد المياه في شبه جزيرة سيناء	د. السيد السيد الحسيني
١٠١- موقع الامارات العربية المتحدة	د. محمود توفيق محمود

سلسلة اصدارات وحدة البحث والترجمة

١- تقلبات المناخ العالمي	عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو للعز
٢- محافظة الجهراء	أ.د. زين الدين غنيمي
٣- تعدادات السكان في الكويت	د. أمل العذبي الصباح
٤- أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥- أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦- حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت	أ.د. صلاح الدين بحيري
٧- الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال الاستخدام الأرضي	أ.د. علي البنا
٨- البدو والثروة والتغير: دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان	ترجمة: د. عبدالاله أبو عياش حسن صالح شهاب
٩- الدليل البحري عند العرب	
١٠- بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة	د. ناصر عبدالله الصالح
١١- طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي	حسن صالح شهاب
١٢- نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيوجورفولوجيه	د. عبد الحميد احمد كيلو د. محمد اسماعيل الشيخ

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١ـ بيئة الصحاري الدافئة	ترجمة : أ.د. علي البنا
٢ـ الجغرافيا العربية	تعريب وتحقيق : د. عبدالله يوسف الغنيم د. طه محمد جلاد
٣ـ مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي	د. عبدالعال الشامي
٤ـ العالم الثالث : مشكلات وقضايا	ترجمة : أ.د. حسن طه نجم
٥ـ التنمية الزراعية في الكويت	أ.د. محمد رشيد الفيل
٦ـ القات في اليمن : دراسة جغرافية	د. عباس فاضل السعدي
٧ـ هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة	تعريب : د. سعيد أبو سعدة
٨ـ منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٩ـ البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي	تحقيق القاضي اسماعيل بن علي الأكوع
١٠ـ المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق	د. أحمد حسن ابراهيم
١١ـ الأبعاد الصحية للتحضر	ترجمة : أ.د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢ـ التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد : دليل مراجع	د. صبحي المطوع حسن صالح شهاب
١٣ـ قواعد علم البحر	
١٤ـ الانسياق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض ـ الدمام	مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥ـ التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي	د. وليد المنيس د. عبدالله الكندري
١٦ ـ كيف ننقذ العالم	ترجمة : أ د. علي علي البنا، أ.د. زين الدين عبدالمقصود

رسائل جغرافية

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية

يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الجمعية الجغرافية الكويتية

جمعية علمية تهدف إلى النهوض بالدراسات والبحوث الجغرافية وتوثيق الروابط بين المشتغلين في المجالات الجغرافية في داخل الكويت وخارجها